من عيون الأدب الجاهلى

دكتــور

شفيق عبد الرازق أبو سعده

١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م

مطبعة حسان

٢٤٤ أ شارع الجيش - القاهرة ت ٨٣٣٥٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمـد لله رب العالمين ، والصـلاة والسـلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، والمأثور بوحى الله وكتابه ، والمميز بالفصاحـة وسحر البيان ، وعلى آله وصحبه أجمعين ٠

وبعـــد :

فان شعرنا العربى الضارب بأطنابه فى أغـــوار الزمن لحـــافل بالكنــوز والنفائس ، وزاخـــر بالـــدرر والجواهر ، تتطلع دائما الى من ينقب عنها ويجلوها ، ويعرضـها فى معرض كريم ، مشرقة الجبين وضـــاءة المحيا ، نابضـة بالحس والوجدان الانســـانى ، اللذين اتسمت بهما على امتداد هذه الحقب والقرون المتطاولة ٠

ومن أجل هذه الغاية الرامية الى الكشف عن جواهر الأدب ونفائسه ، وايجاد الصلة بين الشعر والنفس ، كانت هـــذه الدراسة التى قامت على نماذج فنية من شـــعر العصر : الجاهلى ، تميط اللثـام عن بعض المناحى والاتجاهات الأدبية فى هذين العصرين ، اللذين حظى الشعر فيهما بدرجة عالية من الجودة والعمق ، عن طريق التحليل فى ضوء المنهج الأدبى الفنى ٠

تنقب هـــذه الدراســة عن مناهج القصائد التى تناولتها ، ومذاهبها وخصائصها الفنية ، ومدى ما فيها من تأثر وتأثير ، وتوضح صلتها بحياة قائليها ، والعوامل

النفسية أو السياسية أو الاجتماعية التى كان لها أثر بارز فى توجيه أفكارهم ، وبعث التجارب الشعورية فى صدورهم ، والأحداث التى انفعلت بها مشاعرهم وعواطفهم ، وتبرز النواحى الفنية فى شعرهم ، وما اهتدوا اليه من ابتكارات وصور وأخيلة ، وتجلو الفكرة التى يقع عليها شاعران . رغبة ـ الى جانب ما تقدم ـ فى تكوين الملكات وصقلها ، وتهذيب الذوق الأدبى وترقيته .

لهذا اخترت لهذه الدراسة قصائد حافلة بالكثير من القيم الفنية والانسانية والحضارية ، تفصح عن جوهر شعرائها ونظراتهم الى الحياة .

وانطلاقا من أنه ينبغى على دارس الأدب بعامة والشعر بخاصة أن يرعى حظه من الذوق والشفافية بالقدر الذى يرعى به حظه من العلم والمعرفة جاءت هذه الدراسة على هذا النحو . لأنه اذا كان الأدب الانشائى الصادر عن منتجيه ، نتيجة شعور وجدانى والمصور لمنحى من مناحى الحياة الانسانية ، والهادف الى الجمال الفنى لذاته اذا كان هذا الأدب فنا وذوقا كله ، فان الأدب الوصفى الذى يتناوله بالنقد والتحليل والشرح والتعليل والتاريخ ، مزاج من العلم والفن ، أو من البحث والذوق .

ولأن الشاعر الذى يذوب ويحترق لينشىء ويبدع ، استجابة لموهبته التى تتوهج بين جوانحه ، ورغبة فى امتاع الآخرين ، فيسعد سعادة تعوضه عن هذه الآلام التى تنتهبه وهو تحت سلطان التجربة والالهام ، انما هو ـ الى جانب هذا كله ـ صورة مجتمعة ومرآته ، وان لم يقصد الى ذلك قصدا ، وما ذلك الا لأنه جزء لا يتجزأ من مجتمعه .

ولأن الحياة سلسلة من مواقف الصراع ، والأدب هو المعبر عنها والمصور لشخصية صاحبه فى تفاعلها

واضطرابها وانفعالها ، فاننا لكى نتفهمه ينبغى أن نلقى الضوء على ما دار لدى الذى ابدعه .

وان الاقتصار على دراسة النص الادبى فى ضوء اللغة بعيدا عن هذه الاتجاهات لا تفصح فى كثير من الاحيان عما يرنو اليه الشاعر ، فقد يفوت على الدارس الكثير اذا اكتفى بنقل معانى ألفاظ البيت من المعجم اللغوى . فالشاعر انما يلون الاشياء بعاطفته ، ويصبغها بمشاعره .

وهذا البحث أثر من آثار الشعراء الصعاليق ، وغصن من دوحتهم الظليلة ، وجدول من معينهم الفياض ، فاسداء الفضل الى ذويه من الفضل ، والاقرار بالجميل ، كفاء الواجب .

ولعل فى صفحاته ما يكشف عما اليه هدفت ، ويبين عما اليه سعيت ، ويعطى القوس باريها ، فلقد حاولت ذلك وجهدت ، وأرجو أن أكون قد وفقت .

ولست ازعم انى بلغت الغاية ، أو جاوزت الحافة ، فما البحث الا عجالة لهفان ، وبلالة ظمآن ، وحسبى أننى

سرت على الدرب ، وتقصيت الجوانب الفنية ، وتتبعت أبعادها .

والأمل أن يكون البحث حلقة مثمرة في سلسلة الدراسات الأدبية التحليلية .

وعلى الله قصد السبيل ..

د . شفيق عبد الرازق أبوسعده

القســـم الأول
من عيون الشـــعر
الجاهلى

زهير بن أبى سلمى (١)

التعريف بالشاعر :

هو زهير بن أبى سلمى ربيعة بن رباح - وقيل رياح - ابن قرة بن الحارث المزنى ، كنى أبوه بابنته سلمى ، استوطن أبو سلمى فى الحاجر - الغطفانية - من أرض نجد - جنوب الرياض اليوم - وتزوج امرأة ذبيانية هى أخت بشامة بن الغدير الشاعر . ولد زهير فى الحاجر فى نحو عام عشرين وخمسمائة للميلاد ، ونشأ فى أرض غطفان ، فزهير لذلك مزنى النسب ، غطفانى النشأة والمربى ، وبنسبه هذا صرح ابنه كعب فى قوله :

هم الأصل منى حيث كنت واننى
من المزنيين المصفين بالكرم (٢)

يتم زهير من أبيه باكرا ، فلزم خاله بشامة بن الغدير ، وكان رجلا عقيما حكيما . عرف بسداد الرأى وجودة الشعر ووفرة المال ، فاغترف من شعره ، وتأثر بعلمه وحكمه ، وظهر ذلك جليا فيما رصع به شعره من درر

---

(١) زهير فى الأغانى ج ١٠ ص ٣٧٥٢ وما بعدها (طبعة دار الشعب بتحقيق الأستاذ ابراهيم الابيارى) ، خزانة الأدب للبغدادى ج ٢ ص ٢٩٠ وما بعدها (نشر المطبعة السلفية ومكتبتها - القاهرة ١٣٤٧ - ١٩٤٨) ، شرح ديوان زهير لأبى العباس ثعلب - طبعة دار الكتب ١٣٦٣ هـ ١٩٤٤ م تحقيق احمد زكى العدوى ، شرح القصائد السبع الطوال للانبارى ، الطبعة الثانية . تحقيق عبد السلام هارون - طبعة دار المعارف ، شرح القصائد العشر للتبريزى - الطبعة الثانية ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد - طبعة صبيح ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م ، الموشح للمرزبانى ص ٥٦ وما بعدها ، تحقيق على محمد البجاوى - طبعة دار نهضة مصر ١٩٦٥ م وغيرها من المراجع .

(٢) انظر شرح ديوان زهير لثعلب ص ٩ ، ١٠ والشعر والشعراء ص ٥٧ .

الحكمة وفرائدها . تزوجت أمه من أوس بن حجر التميمى الشاعر المبرز ، فعنى أوس بزهير . وجعله راوية له (١).

من ثم نرى أن زهيرا عاش منذ نعومة أظفاره بين الشعر والشعراء الفحول . كان زهير راجح العقل سديد الرأى رحب الأناة شديد الورع محبا للسلم ، يشهد بذلك شعره والرواة الذين وصفوه : بالبعد من السخف والتنزه عن الفضول . عمر زهير حتى سئم الحياة وأعباءها ، وتوفى قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم بسنة (٢).

مكانته الأدبية :

ظهرت طلائع النهضة التى عرفتها الجاهلية المتأخرة - التى سبقت الاسلام مباشرة - على يد زهير وأضرابه من أمثال : النابغة والأعشى وعنترة ، وغيرهم من شعراء هذه الحلبة ، فقد كان تأخرهم فى الزمن فرصة أتاحت لهم أن يتعقبوا على الشعراء الأوائل ، وألا يكتفوا بالشعر الذى يأتى عفو الخاطر ، دون شحذ الذهن وطول الأناة ، لتخرج القصيدة لوحة رائعة وصورة بارعة ، مستوية فى الجودة واللطف والبراعة ، وفى هذا تفسير لقول ابن رشيق « كان زهير يتوكأ على أوس بن حجر فى كثير من شعره » (٣) . فقد كان زهير راوية له .

واذا كان زهير قد تأثر بهذه النهضة التى تناولت اللغة والشعر ، فانه قد أثر فيها ، فهم يعدونه - والنابغة - من عبيد الشعر (٤) ، الذين تعلموه ونقحوه ، ويضيفون اليه تلك القصائد المعروفة بالحوليات ، اذ كان زهير لا يعبأ

---

(١) الشعر والشعراء ص ٥٧ .

(٢) الموشح ص ٥٦ .

(٣) العمدة ٨١/١ .

(٤) انظر الاغانى ٣٧٥٢/١٠ . (ط دار الشعب) ، والشعر والشعراء ص ١٧ (ليدن) .

بالحول ينقضى وهو يعاود شعره بالتهذيب والتحكيك ، ولذا قال ابن سلام : « ان من قدم زهيرا احتج بأنه كان أحسن (الشعراء) شعرا ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعانى فى قليل من الألفاظ » لهذا عد زهير أستاذ مدرسة المجودين ، اذ برز التجويد على يديه فنا عميقا متكاملا ، وزهير قد أضاف الى الهيكل الأدبى الحكمة والأمثال الشعرية التى اشتهر بها ، لضربه فيها بسهم وافر ، كما اشتهر النابغة بالاعتذار .

وزهير أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء الجاهليين ، وهم : امرؤ القيس والنابغة(١) . وشاعرنا ، وقد اختلف النقاد فى تقديم أحد الثلاثة على صاحبيه .

أعجب به عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقدمه ، لأنه « كان لا يعاظل فى الكلام » ولا يتتبع الغريب الحوشى ، ولا يمدح أحدا الا بما فيه » (٢) وعلى كل فهو من شعراء الطبقة الأولى ، وقد غلب عليه المدح والوصف والحكمة ، وبرع فيها وتألق .

وزهير كان من أقدر الشعراء على تهيئة الجو الشعرى . وخلق البيئة الملائمة ، فى رقة ورفق ، ووداعة نفس ، وحلاوة روح .

وشعره يكشف عن ملامح شخصيته ، وما امتاز به من عقل وحكمة وانتفاع بالتجربة ، وحب للسلام ، ونزعة الى التدين ، وما اتسم به من احساسه الأشياء احساسا قويا ، وشعوره بها شعورا عميقا ، وتصويرها تصويرا رائعا .

---

(١) الاغانى ٣٧٥٢/١٠ .

(٢) الشعر والشعراء ص ٥٧ ، وخزانة الادب ٢٩٠/٢ وما بعدها .

وبعد : فاليك النص المختار من شعر زهير العملاق للدرس والتحليل (١) .

قال زهير بن أبى سلمى يمدح حصن بن حذيفة ابن بدر فزارى :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله
وعرى أفراس الصبا ورواحله (٢)
وأقصرت عما تعلمين وسددت
على سوى قصد السبيل معادله (٣)
وقال العذارى : انما أنت عمنا
وكان الشباب كالخليط نزايله (٤)
فأصبحن ما يعرفن الا خليقتى
والا سواد الرأس والشيب شامله (٥)

***

فبينا نبغى الصيد جاء غلامنا
يدب ويخفى شخصه ويضائله (٦)
فقال : شياه راتعات بقفرة
بمستأسد القريان حو مسائله (٧)

---

(١) النص المختار فى شرح ديوان زهير لثعلب ص ١٢٤ وما بعدها .

(٢) اقصر : كف .

(٣) عدل عن السبيل : مال عنه ، والمعادل : المذاهب والطرق ، جمع معدل ؛ قصد السبيل : الطريق المستقيم ؛ يقال : طريق قصد وقاصد أى مستقيم ، كانه يسلك الوجه الذى يقصده السالك فلا يميل عنه ولا يحيد ، واضاف القصد الى السبيل . ومنه قول الله تعالى : « وعلى الله قصد السبيل » (الآية ٩ من سورة النحل) .

(٤) العذارى : جمع عذراء ، البكر الكاعب الحسناء . الخليط : الصاحب . نزايله : نفارقه .

(٥) خليقتى : طبيعتى وشيمتى .

(٦) نبغى نبتغى أو نطلب . يدب : يمشى راجلا ببطء .

(٧) الشياة : المراد بها هنا حمر الوحش . المستأسد : ماطال من النبات وقوى . القريان : جمع قرى كغنى ، مسيل الماء الى

ثلاث كاقــواس السراء ومســـجل
قد اخضر من لس الغمـير جحـافله (١)
وقلت : تعــلم أن للصــيد غــرة
والا تضــيعها فانــك فاتلــه (٢)

***

وأبيض فيــاض يــداه غمامــة
على معتفيــه مــا تغب فواضــله (٣)
بكــرت عليــه غــدوة فوجــدته
قعــودا لديــه بالصريم عــواذله (٤)
يفــدينه طــورا وطــورا يلمنــه
وأعيــا فمــا يدرين أيــن مخاتله (٥)
فأقصرن منــه عن كــريم مــرزء
عــزوم على الأمــر الذى هــو فاعله (٦)
أخى ثقــة لا تتلف الخمــر مالــه
ولكنــه قــد يتلف المــال نائله (٧)
تــراه اذا مــا جئتــه متهــللا
كأنك تعطيــه الذى أنت ســائله

الروض . حو : وصف من الحوة . مسائلة : جمع مسيل فان كان من « سال » فوزنه « مفعل » ولا يهمز جمعه قياسا ، وان كان من «مسل» فوزنه « فعيل » ويهمز فى الجمع قياسا .

(١) السراء : شجر تتخذ منه القسي . المســحل : الحمار ، مأخوذ من صوته فهو السحيل . اللس : الأكل بمقدم الفم . الغمير : نبات شديد الخضرة . الجحافل : جمع جحفلة ، وهى شفاه هــذه الحمر الوحشية .

(٢) الغرة : الغفلة .

(٣) المعتفون : طالبو المعروف . ما تغب : ما تنقطع الفواضل: العطايا .

(٤) الصريم : الصباح او المكان اى القصر .

(٥) مخاتلة : اماكن الختل ، نختله ، نخادعه .

(٦) اقصرن : كففن . المرزأ : المصاب فى ماله لكثرة ما يبذل منــه .

(٧) نائلة : عطاؤه .

وذى نسب ناء بعيد وصلته
بمال وما يدرى بأنك واصله
وذى نعمة تممتها وشكرتها
وخصم يكاد يغلب الحق باطله
دفعت بمعروف من القول صائب
اذا ما أضل الناطقين مفاصله
وذى خطل فى القول يحسب أنه
مصيب فما يلمم به فهو قائله
عبأت له حلما وأكرمت غيره
وأعرضت عنه وهو باد مقاتله
ومن مثل حصن فى الحروب ومثله
لانكار ضيم أو لأمر يحاوله

مناسبة القصيدة : (١)

كان سيد فزارة حصن بن حذيفة من سادة العرب وأجوادهم وفرسانهم ، وكانت له وقائع مأثورة فى حروب قومه مع عبس وغيرها من القبائل ، لم تلن قناته ، ولم يدن قط للملك ، فلما قتل حذيفة أرسل اليه عمرو بن هند ملك الحيرة يستدرجه ويقول :

انى ممدك بخيل ورجال ، فادخل فى مملكتى وأجعل لك ناحية من الأرض ، فأرسل اليه حصن يقول : ما كنت قط أفرغ لحربك منى الآن ولا أكثر عدة ، وأنا لك بالفضاء . فانه ليس حصن الا السيوف والرماح ..

وأقبل حصن ومعه قبيلتا : أسد وغطفان : المحالفتان له ، ونزل فى مكان يقال له « زبالة » ينتظر عمرو ابن هند ، ولكن عمرا الملك كره قتال حصن بن حذيفة ، وخافه .

---

(١) انظر شرح الديوان ص ١٢٤ .

أقسـام القصيدة وفنونها

تسبح كل مجموعة من القصـيدة فى فلك ، وتدور كل طائفة منها حول فكرة عامة واحدة تؤلف قسما مستقلا من القصيدة يحمل كل قسـم بين جنبيه فنا من فنـون الشعر ٠

فأما القسـم الأول فقـائم على فن الغـزل ، يعلن الشـاعر فيه اعـلانا أن قلبـه قد انصرف عن صاحبته ، ويتحدث عن اقصـاره عن الهوى وترك اللهو ، اذ طعن فى السن واشتعل الرأس منه شيبا ٠

وفى القسم الثانى يبدو فن الوصف واضحا جليا ، يتناول فيه الشاعر الأطلال والغيث والفرس والصيد ، وما يتبع ذلك من المخاتلة والتأنى ٠

أما فى القسـم الثـالث والأخير فيتـألق الغرض الأساسى من القصيدة وهو فن المدح فقد عمد فيه الشاعر الى مدح حصـن بن حذيفة وأبيـه ، واتخـذ من الفنين السابقين توطئة ومقدمة الى المدح على عادة الجاهلين فى أشعارهم ٠

وقد اخترنا من القصيدة أبياتا تشتمل على فنونها الثـلاثة ، وراعينا أبينها مديحـا وأوضحها لأسـلوب الشاعر ٠

معانى الأبيات المختارة

كان قلب ذلك الشـاعر المصور فى غمرة من الحب أيام الصبا والشباب ، وامتد به أمد هذه الجهالة ، وكان لها تأثيرها البـالغ فيه ، حتى أدركه من الشيب والطعن فى السـن ما نبهه الى غفلته وغفوته : فانحسر عن قلبه ما كان يغشيه ، وانكشف عن عينه ما كان يغطيها ، فاذا

هو صاح يقظ ، واذا الباطل الذى كان يلاحقه قد اندحر واندثر ، واذا الأفراس والرواحل التى كان يمتطيها الى الصبا واللهو قد عريت ، فلم تعد مهياة لقصد من مقاصد الشباب والجهل والهوى ٠

ولقد كف عن الهوى ، وشرع يفسر لنا أعراضه عن اللذة واقتصاره عن اللهو ، واقباله على الجد ، لا رغبة فيه ، ولا زهدا فى متاع الحياة ، بل قصورا وعجزا ، فقد أصبحت السبل التى كان يسلكها فى ضلاله مغلقة فى وجهه فليس له من سبيل غير السبيل المستقيم والطريق الأرشد ٠

ويذكر تقدم الأيام والشيب اللذين يصرفان عنه العذارى ، ويطلقان ألسنتهن بهذه الكلمة التى تؤذيه ، اذ كن يرين فيه أخا وصاحبا ، واليوم يسمينه عما لكبره ٠

واذا ذكرنه الآن تذكرن شبابه وشيبه معا ، وكيف اختلف منه الحال وفاض منه ماء الشباب ٠ ويسرع زهير الى فن آخر من فنون الشعر هو وصف الصيد ، فنراه بعد أن وصف المطر والنبات والفرس ، يصور لنا تصويرا دقيقا غلامه الذى ذهب يستطلع الحيوانات الوحشية فى الصحراء ، وقد جاء ينبئهم بمكان الصيد وهو حذر محتاط « يدب ويخفى شخصه ويضائله » رسم حركته وسيره بهذه العبارة الموجزة ، وأنه كان يحاول أن يخفى شخصه حتى لا تفزع الوحوش ٠ وأخبرهم أنه رأى غير بعيد ثلاث أتن وحشية ، وهن ضامرات ، ومعها فحلها – أو حمارها – وقد أكثر هذا الفحل من رعى النبات المخضر ، حتى ظهرت خضرة هذا النبات فى مشافره ، وحينئذ أوصى زهير غلامه كيف يتبع

فريسته ، وهذا بهذا كله انما يصور حرصه على طلب الصيد والحصول عليه .

ثم انتقل من هذا الى فن آخر هو فن المدح ، فنراه يضفى حللا من مدائحه الرائعة على سيد بنى فزارة حصن بن حذيفة ، فيمدحه بنقائه من العيوب ، وأنه كريم الى حد لا يدرك حتى لتشبه يداه سحابة ، فما تزالان تهطلان على طالبى معروفه وقاصديه بالعطايا والصلات .

وعبثا يهتف به العوازل أن يكف عن كثرة نواله ! وقد لمس الشاعر ذلك بنفسه حين قصد الى ممدوحه عند الصباح فوجد اللائمات يلمنه ، ويداولن بين الكلام الرقيق والكلام العنيف ، ولكنه كان يعجزهن فما يستطعن التأثير فيه ، وعندئذ أقصرن عنه ، وتركنه وشأنه ، وولين عن رجل كريم مصاب بماله . وحصن مثال للرجل الفاضل الذى لا ينفق أمواله فى اللهو والخمر انما ينفقها فى الصنيع الجميل ، وأنه ليقبل على طالبى معروفه بالبشر والطلاقة ، حتى ليكادون يظنون أنهم المسئولون لا السائلون .

ويلتفت زهير الى مخاطبة ممدوحه فيقول له : كم من بعيد وصلته بمالك ونوالك دون أن يعلم مصدر هذا النوال ، وكم من صاحب نعمة فاضت بها يدك وأتممتها عليه بلا من ولا أذى ، ويمدحه بحسن جداله للخصوم ومنطقه الصائب وكياسته ، فكم من خصم شديد يوشك أن يظفر باطله بالحق دفعه بالقول المعروف الصائب فرده الى الصواب والهدى وقد عجز الآخرون أن يهتدوا اليه .

وحصن لسن فصيح ، قوى الحجة بالغ البرهان ، حليم مع ذلك شديد الصفح ، معرض عن اللغو متفضل

على الضعيف المغلوب ، فكم من ثرثار مخطىء ، عقله وراء لسانه ، لا يتاتى ولا يتروى فى أقواله ، يحسب كل ما يعن لخاطره صوابا ، يسعه حصن بالحلم ويقابله بالصفح ، وهو القادر على أن يفتك به ، لأن مقاتله بادية له ظاهرة أمامه .

ويعود الشاعر الى الالتفات من مخاطبة الممدوح الى التساؤل عمن يدانى حصنا فى مختلف الأحوال فى السلم والحرب ، مشيرا الى وراثته الطيبة عن آبائه ، وعراقة محتده فهو شريف حسيب . يأبى الضيم ، ويرهبه أولو السطوة والقوة .

الأفكار :

لا مراء فى أن زهيرا قد جاش صدره بأفكار أودعها هذه الأبيات التى اخترناها ، ونحن اذا رحنا نتلمس أفكار الشاعر ، لم نجد بدا من أن نقسمها الى أقسام ثلاثة ، يتبع كل قسم مقطعا من المقاطع التى تتألف منها القطعة المختارة ، فكل منها مستقل الاتجاه جديد فى غايته الأدبية .

يدور المقطع الأول حول فكرتين ، عزوف الشاعر عن الصبوة وباطل الهوى ، اذ صحا قلبه من غفوته وكفكف من صبوته ، وطعنه فى السن واشتعال رأسه شيبا ، وموقف النساء منه .

وغير خاف أن هذه الفكرة الثانية انما هى تعليل منطقى للفكرة الأولى .

وتدور أفكار المقطع الثانى حول الصيد والحرص على الظفر به ، وخبرته بوسائل الصيد .

أما المقطع الثالث فيصدر عن فكرة عامة هى المديح بشــتى أوصافه وصـوره التى يمكن أن تنطبـــق على الممدوح ، وتتناول أفضـل المآثر وأكرم الخـلال وأعظم الخصال التى يتحلى بها سيد مطاع وكريم شجاع • ولهذه الفكرة العامة مظاهر مختلفة يمكن أن تعد أفكارا خاصة، وهى المتمثلة فى تلك الصفات التى خلعها على ممدوحه فكل صفة فكرة •

وزهير هنـــا يسوق فكرة ثم يعمد الى تفصـــيلها وتقريرها فى أبيـات لاحقة لها ، فتراه يصـف ممدوحه بالـكرم والسخاء ، ثم يلح على هـذه الفكرة تتمة لهـا وتقريرا • وأفكار زهير تتزاحم فى صدره فنجده يحمل ثلاث صفات فى بيت واحـد ، هو البيت الأخير ، فان حصنا لا يدانى فى القتال شجاعة واقداما ، ولا تكاد تجد له شبيها فى عزة النفس واباء الضيم والظلم ، ولا توشك أن ترى من يقاربه فى الدهاء والاحتيال للأمور •

هذه ـ فى الجمـلة ـ هى الأفكار التى صـدر عنها الشاعر فيما اخترنا من أبيات • والحق الذى لا محيض عنه ، أنه استطاع بمقدرته الفنية أن يأتى بهذه اللفتات الذهنية فى تسلسل ووضوح ، فما فى هذه المقاطع فكرة غامضة أو مبهمة ، وما فيها وصف يمكن أن يقال فيـه : انه لا ينطبق على حال سيد كريم حمى الأنف سخى اليد •

ذلك لأن زهيرا لم يوغل فى الأفكار البعيدة ، ولم يبالغ ، ولم يتكلف لممدوحه ما ليس فيـه من الصفات ، ولذلك كان زهير لا يمدح الرجل الا بما فيه •

الى جانب أن الشـــاعر لم يجعل صفاته متداخـلة بعضها فى بعض من غير استطراد منطقى •

ويلاحظ على هذه الأفكار : الاسهاب والتبسـط فى

بعض المواطن ، وذلك حين يرغب فى جلاء الفكرة التى يعالجها على أحسن وجه وأبين صورة ، ومن أجل هـذا يختار لها أوجها جديدة ، فاذا كان الممدوح كريما ، جاءنا بفكرة عذل ولوم اللائمات عنـد الصباح ، وبفكرة تهلل وجهه واستبشاره بالاكرام ، وبفكرة اتمام النعم على من يسدى اليهم ، وبفكرة شكره لما أنعم ، كل هذه الأفـكار متتابعة هدفها شرح الفكرة الأولى القائمة على الكرم . ومن هنا فلسنا بمبالغين اذا قلنا : ان الوضوح والاشراق من أخص الصفات فى أشعار زهير .

كمـا يلاحظ على الأفـكار : قربهـــا من الواقـــع ، وصلتها الوثيقة بالحياة التى عاشها ، وتصويرها الدقيق للنفسية التى تجلت فى الشاعر .

أثر العاطفة والنفس :

يعيش القارىء المتذوق تجربة زهير هذه دقة دقة ، فيحس احساسـه ويشعر شـعوره ولا يكاد يفرغ الا حين ينهيها الشـــاعر ، ذلك لأن الأبيات تفيض بالعواطف المختلفـة وتزخر بالأحاسيس المتباينة ، وتحمل نفســا سفها الحب ، ورققها الحنين ، وأرقها الشـيب وأحزنها فوات الشباب ، ثم نهض بها الاكبار والاجلال للممدوح .

فأنت لا تكاد تنتهى من التأثر بعاطفة حتى تشـعر بعاطفة أخرى،على الرغم من أن مقطعا أساسيا فى الأبيات متصل بالمديح ، وهو من الأغراض التى تقل فيها مظاهر العواطف المتقدة : اذ أن الموضوعات التى تتصل بالقلب من مواطن الحب والحنين أو الغضب والكراهية فياضة بالمشاعر جياشة بالعواطف ، وأن الموضوعات التى تجنح الى مخاطبة العقل فى مواضع الفكر والفلسفة والحكمة فضئيلة الأثر من الأحاسيس قليلة الاتصال بالعواطف .

الا أن زهيرا استطاع بما أوتى من حاسـة مرهفة ومقدرة فنية فذة أن يظلل أبياته - حتى مديحه - بظلال عاطفته ، وأن يلون شعره بلون شـعوره ووجدانه وأن يجعله مرآة لنفسه وخاطره ، وان كان حظ المقطع الأول من العاطفة أكثر وأوفر وأشد اتقادا ٠

فى المقطع الأول : تبدو عاطفة الحسرة والحنين ، الحسرة على الشباب الذى ولى ، والحنين اليه والتهلف الى أيام الحب والهوى ، وهى عاطفة متقدة فى صدره ، وجد صاقة ، ولا يشـعر بعمقها ومدى صدقهـا الا أولئك الطاعنون الذين تقدمت بهم السـن وحنوا الى سـوالف أزمانهم ، فما أحلى الرجوع الى الأيام الخوالى !! ألست معى أن الشاب يذكر باللهفة أيام الصـبا اللعوب والمرح الطروب ، كما يذكر الشيخ بالحسرة أيام الهوى الباطل والحب الراحـل ؟ ولصدق هـذه العاطفة يحسب الطاعن فى السن أن الشاعر وقد صاغ عاطفته هو ، أو قال هـذه الأبيات على لسانه ٠

وهـذه العاطفة يخالطها شـعور بالألم ، وعاطفة مفعمة بالمرارة ، ذلك لأن الشـاعر يتألم ويتأذى بقول العذارى : « انما أنت عمنا » ٠

على أن زهيرا لم يكد يذكر تقدم سـنه ، وما اضطر اليـه من الجـد ، حتى حن الى عهـوده الأولى ، فذكر الديار ، واستأنف قصيـدته استئنافا ، كأنه يبتدئها دون أن يقدم بين يديها شعرا فقال :

لمـن طلل كالوحى عاف منـازله
عفا الرس منـه فالرسيس فعاقله

على أنه لا يزيد بهذه الذكرى على أن ينظم أسـماء الأماكن التى كان يلقى فيها أحباءه ، ويستقبل فيها لهوه

الخصائص الفنيـة

أصبح واضحا ما تضمنته هـذه الأبيات من أفكار كثيرة متنوعـة وعواطف متباينة متعـددة ، استحوذت على النفس وكان لها تأثيرها البالغ فيها ، وما كان لها أن تبلغ هذا التأثير فى النفس لو لم يتخير لها الشـاعر معرضـا كريما من معارض القول المصـقول المهـذب ، فالأفكار والعواطف لا تصل الى نياط القلب ولا تستوى على النفس اذا كان ثوبها الذى تعرض فيـه باليـا رثا مهلهلا أو سوقيا متبذلا ، فان لانتقاء الألفاظ واختيارها الأثر الفعال فى تخليد المعانى والأفكار وتزيين العواطف والأحاسيس وتلوين الوجدانات والمشاعر ٠

ولعل حسـن القول عنـد زهير وبصبره الثاقب فى اختيار ألفاظه وتراكيبه ، هو الذى كتب لشعره الخلود ، وجعله يصل الينـا ، فتحتضنه قلوبنا ونفوسنا ، وتلثمـه عيوننا وآذاننا ٠ والذى يبحث عن الحسن فى قول زهير يجده متمثلا فى :

هذه اللبنات اللفظية التى شيد منها البناء الأدبى ، فتراك لا تنكر منها لفظة واحدة ، ذلك لأنها جمعاء تتمتع بالصـفاء والجـلاء والدقة والاحاطـة بالمعنى والوقع الموسيقى الأخاذ فلست تجد فيها لفظة نابية أو قلقة فى مكانها ، أو لفظة غريبة تتعثر فيها ، أو وحشية تستكره وقعها أو تستثقل الأذن جرسها الموسيقى ، وكأنى بزهير الشـاعر قد وضعت اللغة أمامـه فانتقى أحسـن وأروع ما فيها صفاء ودقة ووقعا ، وتحاشى الغرابة والوحشية والنبوة فلا تجد أثر الشىء من هـذه الأشياء المنكرة فى مفرد من المفردات التى اعتمد عليهـا فى أداء ما يريده والتى استوعبت عواطفه وأفكاره ٠

قدرة الشاعر على اصطفاء ما كان أملأ معنى وأكثر

أداء من المفردات ، بحيث تحمل الى الفكر من الصور والمعانى والايحاءات ما لا ينهض بأدائه غير الكلام المسهب ، ففى لفظ « صحا » معنى اليقظة وصورة الصحوة ، الى جانب أنه يأخذك الى تلك الحياة التى كان زهير يحياها قبل أن يصحو ويستيقظ بكل معانيها وصورها ، ولفظة « عمنا » تحمل اليك كبره وشيبه وحسرته على الشباب وأساه على فواته ، ولوعته لما صار اليه أمره . ولفظة « يدب » ترسم بدقة حركة الغلام وسيره ورغبته وحذره حتى لا تفزع الوحوش ، وكم من معنى متوافر وصور متعددة كامنة وراء كلمة « أبيض » فهى تحمل فى تضاعيفها النقاء والترفع وجميل الخلال والسجايا وحميد المزايا ، وترى هذا فى كلمة « المزرأ » الذى أصابه الرزء والخطب فى ماله بصورة مستمرة ، وكم تفيض كلمة « المتهلل » بالصور النبيلة للنفس الانسانية السهلة السمحة التى تنشرح للكرم وتنبسط للسائلين .

ونحن اذا تلمسنا كل الألفاظ التى جاءت فى الأبيات تتمتع بوفرة المعانى لضاق بنا الوقت والمقام ، فهى ما أكثرها ، ولكن نكتفى بما أشرنا اليه منها ، اعتمادا على ذوق القارىء ، وحسن تأتيه ، وسيره على الدرب ، فمن سار على الدرب وصل .

حسن التأليف بين المفردات : فزهير بعد أن اختار ألفاظه ، وانتقى قوله المترع بالمعانى ، وجاء ليجمع بين هذا الكلم المصفى لم تخنه قدرته الفنية على تجويد الوصف وحسن التأليف بين المفردات ، وبذلك استقام له جمال البناء كما تهيأ له صفاء المفردات ، غير أن زهيرا لم يشأ أن تأتى كل ألفاظه فى معانيها الحقيقية ، أو بمعنى آخر لم يرتض لمعانيه كلها أن تلبس من أثواب اللفظ ما وضع لها فى اللغة ، وانما آثر أن يطوف فى

الآفاق يستعير ما شاء لما يشاء ، مستعينا بخياله اللماح ، ليجعل معانيه أحب الى النفوس وأشد تأثيرا فيها وأقرب من القلوب وأكثر استحواذا عليها ، ومن أجل ذلك كان زهير شاعرا مصورا ، وكان التصوير أساس فنه ، لهذا كله رأينا زهيرا يأتى باستعارة لطيفة ونادرة معا ، فى بيته الأول : « صحا القلب عن سلمى » فقد ذهب يتخيل ، وبعد به خياله ، فاذا هو يتصور أسباب حبه وصبوته التى كان دائما يلزمها أفراسا ورواحل يركبها الى صاحبته ، وكان طريقه اليها مشغولا دائما بهذه الأفراس والرواحل ، فلما أدركته الكبرة وتقدم به العمر ، أقصر عن هذا كله ، وعرى أفراس الصبا ، وعرى رواحله ، وتركها مهملة ، لا تعينه على رواح ولا على غدو .

وهذا التخيل عن طريق « الاستعارة المكنية » يجمل المعنى ويجعله قريبا من النفس من أن يورده على أصله من غير تخيل ولا تصوير ولهذا شغف هذا البيت أصحاب البيان ، ويؤكد بعد هذه الصورة على أنها لا تقع الا فى ذهن يتعمق فى الأشياء والمعانى ، حتى يتخيلها أحياء حقيقية ، ونجد مثل هذا التخيل فى بيته الثانى « وأقصرت عما تعلمين » فقد تخيل أن للهوى الذى تعلمه سلمى سبلا كان يعدل اليها فيسلكها ، بغية الوصول الى لهوه وغبثه ، ولكن هذه السبل المعادل قد سدت دونه ، فلم يبق أمامه غير سبيل قاصد ، فيه الحق والرشاد . فسلكه ، فكان من هذا التخيل والاستعارة فكرة تشرح الفكرة السابقة وتوضحها ، وتكنى بها عن السداد والتوبة من الباطل وتغليب العقل على الهوى والشطط .

والتعليل المنطقى والتوضيح واضح فى شعر زهير ، فنراه يشرح هذه الفكرة الثانية بكناية جديدة عن الشيب والتقدم فى السن ، فى قوله : وقال العذارى انما أنت عمنا ، اذ أصبحن ينادينه بعمهن لما رأين من شيب يجلل

شعره ، والأفكار هنا الى جانب اقترانها بالواقع فانها لا تخلو من تصوير وتخيل ، اذ جعل الشباب كالصاحب المعاشر ، وأعاد الى الذاكرة سواد الشعر ، وقد بدأ الشيب يشمله شيئا فشيئا مع الأيام ٠

ومن يمضى مع هذه الأبيات - وما أجمل المضى معها - يجد التصوير بكل صوره وألوانه فاقعا فيها ، فقد كثرت فى هذه الأبيات الاستعارات والتشبيهات والكنايات كثرة مفرطة ، أسعف الشاعر بها خيال لماح متوثب ، وهى تجعلنا نحس بأننا ندخل معه فى عالم خيالى حالم ، نستشف معه كثيرا من الأشياء وعلاقاتها بعضها ببعض ، كما نستشف الجمال فى داخلها ٠ والناظر لأول وهلة فى كلام زهير يتراءى له أنه يجنح الى التحدث عن الواقع ويلتزم أصل المعانى ، الا أنه عندما يتروى ويفتش فى كلامه يجد فن التصوير ماثلا له طلق المحيا وضاح الجبين ٠

فها هو زهير يشبه الأتن الوحشية بأقواس السراء ، ليبرز ضمورها ، ويشبه يدى حصن بالغمامة الممطرة ، ويصف النوافل بالاستمرار فى الجود كالغيث المنهمر الذى لا ينقطع ، ويتحدث عن عذل العواذل واعجاز الممدوح لهن ، فيصور لنا مشهدا يتصارع فيه الكرم الفياض والعذل الشحيح ، ويجسم لنا مواطن التأثير فى الرجل ومواضع الختل له كأنها أماكن تبحث العاذلات عنها ، ويصور لنا فى تخيله كرم الممدوح وسخاءه وقد أهلك المال الذى بين يديه ، وانما أراد بالاهلاك النفاد والعدم ، ويرى الشاعر أن مفاصل القول ومواطن الاصابة فيه قد أوقعت القائلين فى الخطأ والضلال لغموضها وصعوبتها ، فنسب اليها الفعل كما ينسب للناس ، وأن الحلم - وهو شئ معنوى - شئ مجسم يعبأ ويهيأ كما تعبأ الأشياء المادية ويرى أن للهلاك

من اصل الدورية

[illegible]

[illegible] التشبيه والتصوير [illegible] معجبين ، [illegible] الصورة والفكرة .

[illegible] ى
[illegible] بادة
[illegible] ب »
[illegible] بيت
[illegible] ير ،
[illegible] ساح ،
[illegible] الشطر
[illegible] م فى :
[illegible] سؤال فى
[illegible] والباطل
[illegible] ول وخطله
[illegible] .

[illegible] ا فى هـــذه
[illegible] : فأعرضن منه
[illegible] ه كريما مرزأ ،
[illegible] لاوة على ما فى
[illegible] بيت : وذى نسب
[illegible] ا جديدا يقوم على
[illegible] طريقة مألوفة يجول
[illegible] د ، شأنه فى ذلك شأن
[illegible] نن ، وهـذه الطريقة
[illegible] ات المعانى فى الـكلام
[illegible] .

هذا بالاضافة الى أن زهيرا قد اصطنع القصص اليسير وسيلة الى وصف الصيد وتصوير حالته ومن معه حينئذ الجسدية والنفسية ، كما اصطنعه وسيلة الى اظهار هذه الخصال التى يحبها الناس ويألفها العرب فى ممدوحه ، فنراه قد غدا على صاحبــه حصن ، فألغاه وقد أحاط به عواذله يلمنــه لكثرة ما ينفق من المــال ، وهن مع ذلك يحببنه ، ويأخذنه بالرفق حينا وبالعنف حينا ، ولكنهن لا يبلغن منه شيئا ، فاذا بلغ منهن العجز أقصرن عنه ٠

أضف الى هذا كله عنايته بموسيقى هذه القصيدة ، فقــد أودع دوره فيها بحر الطويل وموســيقاه تشف عن نفسه ، وزهير على نحو ما كان يستوفى حظوظا مختلفة من الجمال فى عباراته وصيغه كان يستوفى ضروبا من الاتقان والكمال فى موسيقاه ، فلست ترى فى موسيقى أبياته هذه نشازا أو نتوءا ، وانما تتهادى الألحان وتسير رقيقة كالماء لطيفة كالنســيم ، ولســت ترى فى قوافيه قافية مجتلبة ، أو مكرهة على احلالها فى مكانها ، ذلك أن قوافيه متمكنة فى مواضعها ، تشير الى قدرة صانع أنغامها ٠

فزهير من جهة قد صقل أسلوبه الى أبعد غاية من الصقل ، ومن جهة ثانية عنى بموســيقاه وألحانه عناية واسعة بحيث لا يبدو فيهــا أى شذوذ ، ومن جهــة ثالثة استتم فن التصوير وأتى على ظلاله وألوانه ٠

وهذه القطعة من خير الشــعر فى الغزل والوصف والمديح معانى وأفكارا وأسلوبا ، ولذلك راقت الشعراء فتأثر بها بعضهم كالأخطل الشاعر الذى تأثر ببيت زهير الثالث فقال :

واذا دعونك عمهن فانه
نسب يزيدك عندهن خبالا(١)

والصور فى هذه الأبيات راقية سواء منها الجديد المبتكر أم القـديم المعالج اذ يعمـد زهير الى الصـورة المتداولة فيلمسها بعصاه السحرية فتهتز طربا ، وتتفوق عنـده وتبرز مكانتهـا ، من ذلك أن طرفة بن العبـد لما قال :

فاذا ما شربوها وانتشـــوا
وهبـــوا كل أمـــون وطمـــر

عابوه لأن طرفة جعل ممدوحيه يهبون من الآفة التى تدخل علىٰ عقولهم ، ورجحوا عليه قول عنترة :

فاذا شربت فاننى مســـتهلك
ما لى وعرضى وافـر لم يكلـم
واذا صحوت فما أقصر عن ندى
وكمـا علمت شـمائلى وتكرمى

لأنه احترس من عيب الاعطـاء على الســكر ، وأن السكر زائد فى سخائه .

لولا أن عنترة أتى بالمعنى فى بيتين ، ورجحـــوا عليهما قول زهير :

أخى ثقــة لا تتلف الخمــر ماله
ولــكنه يتلف المـــال نائـــله

---

(١) شرح الديوان لثعلب ص ١٢٥ .

لأنه جعل ممدوحه يبذل ماله للحمد(٢) ٠

فتراه قد أخذ المعنى فحسـنه وجمله وخلع عليه من فنه ووشيه ما رقى به وسما ٠

والذى لا شك فيه أن زهيرا هو شاعر الجمال ، وهو شاعر الحقيقة بحكمه وتجاربه ، وهو شاعر الخير بدعوته الى السلام ، وبما رسمه للفضيلة من مثل فيمن مدحهم ٠ والحق أنه نموذج راق بين الشعراء الجاهلين ، ولقد فتح للشعراء أبوابا فى الغزل والحنين ، وفتح أبوابا فى الوصف والتصوير ، وسن لهم سننا فى المديح والهجاء ، فأى غرابة فى أن يكون أماما من أئمة الشعر العربى النابهين ؟ وأى غرابة فى أن يكون أستاذ مدرسة المجودين ؟ فالحق أنه مثل رائع من أمثلة الشعر الجاهلى ٠

---

(١) انظر الموشـح للمرزبانى ص ٧٨ وما بعدها ، والشـعر والشعراء ص ٩٤ ٠

عنترة العبسى (١)

هو عنترة بن شـــداد العبسى ، من أشـــهر فرسان الجاهلية ، وكثرهم دورانا على الألسنة ، وأحد شـعرائها الأفذاذ المبرزين ، نشأ فى أواخر القرن السادس الميلادى.

أبوه من ســـادات عبسى وأشرافهـــا ، وأمه جارية حبشية تدعى « زبيبة » وقد أورثته ســـواد اللون ، ولذا عدوه من هجناء العرب وأعرابتهم ، يقول ابن قتيبة : « وهو أحد أعربة العرب ، وهم ثلاثة : عنترة وأمه زبيبة سوداء ، وخفاف بن عمير الشريدى من بنى سليم وأمـه ندبة واليها ينسب وكانت ســوداء ، والســـليك بن عمير السعدى وأمه سلكة واليها ينسب وكانت ســوداء »(٢) ، وعده أبوه وقومه من الهجنـــــاء ، اذ كانت عادة العرب الا ينسبوا اليهم أبناءهم من الاماء ، الا اذا أظهروا شجاعة ونجابة نادرتين (٣) .

ومن ثم نشأ عنترة كما ينشـــأ أمثاله من الهجناء ،

---

(١) عنترة فى : اشعار عنترة العبسى ، تقديم وشرح د. محمد عبد المنعم خفاجى ، ط الاولى ، نشر مكتبة القاهرة ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩م الأغانى ج ٨ ص ٢٩٨٣ وما بعـدها ، طبعة دار الشـــعب ، تحقيق الأستاذ ابراهيم الابيارى ، خزانة الأدب للبغـــدادى ج ١ ص ١٢٤ وما بعدها ، نشر المطبعة السلفية ومكتبتها ـ القـــاهرة ـ ١٣٤٧ ـ ١٣٤٨ هـ ، شرح القصائد السبع الطوال للأنبارى ، الطبعة الثانية ، تحقيق عبد السلام هارون ، طبعة دار المعارف ، شرح القصائد العشر للتبريرى ، الطبعة الثانية ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، طبعة صبيح ـ ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م ، الشعر والشعراء لابن قتيبية ص ١٣٠ طبعة ليدن مطبعة بريل ١٩٠٢ . الموشـــح للزربانى ، تحقيق على البجاوى ، طبعة دار نهضة مصر ١٩٦٥ م وغيرها من المراجع .

(٢) الشعر والشعراء ص ١٣١ (الطبعة السابقة) .

(٣) انظر الأغانى ٢٩٨٣/٨ (الطبعة السابقة) وخزانة الأدب ١٢٥/١ .

طريدا بين الرعاة والعبيد ، وكان ذلك يدمى فؤاده ، بيد أنه لم يلبث حين شب عن الطوق واستوى أن غسل عار رقه وسواد لونه ، بما أظهر من شجاعة وبسالة فى بعض حروب قومه ، فقد كان يروض نفسه على الطراد والفروسية حتى غدا مسعر حرب وفارسا كميا لا يشق له غبار ، واتفق أن أغار بعض أحياء العرب على العبسيين، فأصابوا منهم واستاقوا ابلهم ، وتبعهم العبسيون وفيهم عنترة ، فقال له أبوه : « كر يا عنترة فأجابه وهو يتميز من الغيظ : « العبد لا يحسن الكر ، وانما يحسن الحلب والصر » فقال له أبوه : « كر وأنت حر » فقاتل قتالا شديدا ، وأبلى بلاء حسنا حتى هزم المغيرين واسترجع الابل ، فاعترف به أبوه وألحقه بنسبه(٤) ، وفك عنه غل الرق فسار منذ ذلك اليوم اسمه ، وطار ذكره حتى ضرب به المثل فى الاقدام والجرأة ، وقاد كتائب قومه فى حرب داحس والغبراء فأحسن القيادة ، وحمدت مشاهدة فى يوم ذى قار ، وظل فارسا مغوارا ، حتى قتل فى معركة مع بنى طيىء حوالى سنة ستمائة وخمس عشرة للميلاد (٥) .

وقد نسجت حول حياته قصص ، صورته مثلا فى الشجاعة والفروسية ، وهو يعد أبرز فارس . احتفظت به الذاكرة العربية الى يومنا هذا .

---

(١) انظر الشعر والشعراء ص ١٣٠ .

(٢) اكد ذلك جل الذين ارخواله ، ومنهم البغدادى الذى قال : قتله « الأسد الرهيص » من طيىء ، وهو القائل :

انا الأسد الرهيص قتلت عمرا وعنترة الفوارس قد قتلت .

الخزانة ١٢٦/١ وانظر الاغانى ٢٩٩١/٨ .

أبرز فنون شـعره :

جاش الشعر فى صدر عنترة وجرى على لسـانه فى الفخر والحماسة والحب (الغزل) فجاء بالشـائق الرائق والفخم السـامق ، والمتذوق يستشعر فى شـعر عنترة بحلاوة الغزل ورقته ، ومتانة الفخر وقوته ، وعنترة لم يقل هذا الشـعر الجيد الا بعد ظفره بحريته اذ كان الرق قدران على قلبه وأطفأ ضرام عاطفته ٠

على أنه قد أدخل الرواة في شعر عنترة ما ليس منه، ونحلوه ما ليس له ٠ على أن قوم عنترة ما حفلوا بشعره الا بعد أن نظم معلقته وأبدع فيها ، والتى كان قد نظمها فى أعقـاب حـرب « داحس والغبراء »(١) دفاعا عن موهبته وشاعريته ، وتاكيدا على اجادته وتالقه فى عالم البيان والقريض ، الى جانب شـجاعته وعلو كعبه فى ساحة الوغى وأتون الحرب ٠

والقصد التى اخترناها للدراسة والتحليل من عيون شعر عنترة ، واحدى قصائده التى صـحت له ، ذكرها بمناسبتها صاحبا الأغانى والشعر والشعراء (٢) ٠

والآن حان الوقت لندلى بدلائنا فى عيون النص ٠٠

يقول عنترة بن شداد فى الشـجاعة والفروسية فى قصيدته التى مطلعها : (٣) ٠

---

(١) انظر شرح القصائد السـبع للانبارى ص ٢٩٤ (الطبعة السابعة) ، والشعر والشعراء ص ١٣٢ ٠

(٢) راجع الاغانى (طبعة الشعب) ٢٩٨٧/٨ ، والشـعر والشعراء (طبعة ليدن) ص ١٣٣ ٠

(٣) اشعار عنترة العبسى ، تقديم وشرح د٠ محمد عبد المنعم خفاجى ، الطبعة الاولى ، نشر : مكتبة القاهرة ١٣٨١ هـ ١٩٦٩ م ٠ ص ٤٢ وما بعدها ٠

طـال الثواء على رســـوم المنزل
بين اللكيك وبين ذات الحرمـــل

- ١ -

أفمـــن بـــكاء حمامـــة فى أيـكة
ذرفت دموعك فوق ظهر المحمـل
كالدر أو فضض الجمـان تقطعت
منـــه عقائد ســـلكه لم يوصـل (١)

- ٢ -

لما ســـمعت دعاء مـرة اذ دعـا
ودعاء عبس فى الوغى ومحـــلل
ناديت عبسـا فاستجابوا بالقنـــا
وبكل بيض صـــارم لم ينحـــل
حتى استباحوا آل عـــوف عنوة
بالمشرفى وبالوشـــيج الذبـــل
انى امرؤ من خير عبس منصـبا
شطرى وأحمى سائرى بالمنصـل (٢)
ان يلحقـــوا أكرر وان يســـتلحموا
أشـــدد وان يلفوا بضـــنك أنزل
حـين النزول يكون غاية مثـــلنا
ويفر كل مضـــلل مســـتوهل (٣)

---

(١) الأيكة : الشجر الكثير الملتف . ذرفت : سالت . المحمل : على زنة منبر علاقة السيق . الفيضض : القطع جمع فضة . الجمان : الفضة .

(٢) المنصب : الأصل . المنصل : السيف .

(٣) أكرر : من الكر وهو الهجوم . يستلحموا : المستوهل : المفزع من الوهل ، وهو الضعف والفزع والخوف .

ولقد أبيت على الطوى وأظـــله
حتى أنال به كـــريم المـــأكل
واذا الكتيبـــة أحجمت وتلاحظت
ألفيت خـــيرا من معم مخـــول
والخيـــل تعـــلم والفوارس أننى
فرقت جمعهم بطعنة فيصـــل (١)

– ٣ –

بكرت تخـــوفنى الحتـــوف كأننى
أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتهـــا : ان المنية منهـــل
لابد أن أســـقى بكأس المنهـــل
فاقنى حيـــائك ، لا أبالك ، واعلمى
أنى امرؤ ســـأموت ان لم أقتـــل
ان المنيـــة لو تمثـــل مثـــلت
مثـــلى اذا نزلوا بضـــنك المنزل
والخيـــل ساهمة الوجـــوه كأنما
تســـقى فوارســـها نقيع الحنظـــل
واذا حملت على الكريهـــة لم أقـــل
بعد الكريهة ليتنى لم أفعل (٢)

---

(١) الطوى : الجوع . اظله : استمر عليه . احجمت : تأخرت . تلاحظت : نظر بعضهم الى بعض بمؤخر العين ، من يقـــدم على العدو ؟! معم مخول : اى ذى عم وخـــال طعنة فيصل : فاصـــلة حاسمة .

(٢) الحتوف : المهالك ، ومفردها حتف . غرض : هدف . المنهل : المورد .

اقنى حيـــاءك : الزميه واحفظيه . يريد نهيهـــا عن عذله . ولا ابالك : من الكلام الجارى عندهم مجرى المثل ، ويقصد به الدعاء والزجر . ساهمة : متغيرة عابسة .

مناســـبة القصيدة (١) :

على الرغم أن عنترة قد ظفر بحريته بعد أن اعترف به أبوه ، فقد ظل فى قومه من يسمونه « ابن السوداء » حقدا عليه وازدراء به ، وكان ذلك يؤذى نفسته الحـرة الأبية ، ويجعله يستشعر كثيرا من الحــزن والأسى من جهة ، ويبالغ فى فتوته وفروسيته من جهة أخرى ، وقد أبدى شـجاعة خارقة فى حــروب قومه المتلاحقـــة ، ومعاركهم ، ومنها تلك المعركة التى دارت رحــاها بين قـــومه وبنى تميم ، فانهزم العبسيون وعليهم قيس بن زهير ، وولوا الأدبار ، ووقف عنترة للتميميين فصدهم، وتلاحقت به فلول قومه ؛ فقال قيس بن زهير ـ وكأنه ساءه ما صنع عنترة ـ : « والله ما حمى الناس الا ابـــن السوداء » وكأنه يرى من العيب أن يحميهم ابن أمة ، فجاش الشعر فى صـــدر عنترة ، فقال هـــذه القصيدة يفتخر فيها ببسالته ، ويعرض بابن زهير وأمثاله .

عناصر القصيدة :

تتألف القصيدة من عدة عناصر ، تبدو غير متجانسة وغير متداخلة ، وهى كمـــا يتضـح من النص : الحنين والشـجو والأسى ، والفخر بالشـجاعة وابـاء النفس ، والحوار الدائر فى فلك النصح والحزم .

وقد جرى الشـاعر على عادة الشـــعراء ، فافتتح قصيدته بالوقوف على الديار وبكاء الأطلال ، ـ كمـــا رأيت فى مطلعهـــا ـ خلص بعد ذلك الى الحـديث عن همومه وأشجانه فذرف الدمع ، تجاوبا لتلك الحمامة التى تبكى فى أيكتها ، وقد جعل هذا العنصر مقدمة لقصيدته

(١) انظر الأغانى ٢٩٨٧/٨ ، والشعر والشعراء ص ١٣٣ .

والغرض الأساسى منها وهو الفخر – الذى انتقل اليه دون توطئة أو تمهيد ، وقد دارت أفكاره حـــول ما يفخر به الفارس الكامل الفروسية ٠

ومن الممكن التأليف بين هــذه العناصر المختلفة أو المتعددة فى اطار الوحدة النفسية ، فالشاعر يبكى ويتألم لما أنزله به قومه من سخط ، على الرغم من ذوده عنهم ، واقدامه على المخاطر من أجلهم وعندئذ ذهب عنه هذا الضعف النفسى فصرخ فيهم ، مبرزا مكانته بينهم ، معلنا تفوقه على هؤلاء الذين يعيرونه ، متطلعا الى الثأر منهم والانتصار عليهم ، واستعادة ثقته فى نفسه تلك الثقـــة التى ذهبت – غير بعيد – عنه فى غمرة أحـزانه ، وفى جو الضعف النفسى الذى انتابه فى أول القصيدة ٠

المعنى :

أفمـن بـكاء حمـــامة فى أيـكة
ذرفت دموعك فوق ظهر المحمـل
كالدر أو فضض الجمـــان تقطعت
منه عقـــائد سلكه لم يوصـــل

هذان البيتان يحملان نفثة مكلوم ودمعة محزون ، وفيها يعجب الشاعر من نفسه ، فقد هيجت شجوه وأثارت أحزانه حمامة تبكى بين أغصانها ، فسالت لبكائها دموعه فوق محمل – علاقة – سيفه على غير نظام ، وكأنهـــا الدر المنثور ، أو حبات الفضة المذابة ، قد انفرط عقدها وتقطع سلكها ٠

وهنـــا – فى الفقرة الثـــانية – تماسكت نفســه واستجمعت قــواها ، فتحــول يرد على من يغمزونه فى نسبه من جهة أمه ، فيفخر بأن شطرا منه يرجع الى خير

عبس نسبا وشرفا ومكانة ، فهو ابن شداد ، أما الشطر الثانى - شطر أمه - فسيفه وشجاعته يجبرانه ، وليس هذا الفخر منه ادعاء ؛ وانما هو حقيقة يقرها واقع المعارك والحروب ، فهو عضد قومه وساعدهم وهو يدهم الطولى الى الأعداء ؛ فاذا ما دارت رحى الحرب ، هجم مع قومه على العدو فيخذله ويقهره ؛ واذا ما التحمت الصفوف حمل على العدو فى صدق وبسالة فتتزلزل أقدامه ، وتبلغ الروح منه الحناجر ، واذا ما حمى وطيس الحرب ، وتحرج الأمر وصعب الموقف وتمنت نفوس الصناديد الفرار ، ينزل عن صهوة جواده ويعمل سيفه فى رقاب الأعداء فيحصدهم ، ولم يفكر فى تولية الأدبار - كما يفعل غيره ، حتى يظفر بالنصر - وهو هنا يقرع قيس بن زهير لفراره أما بنى تميم ، وليست شجاعة عنترة واقدامه واقتحامه الأهوال ورباطة جاشه كل ما يفخر به ، ولكنه الى جانب هذا ، أبى النفس عفيف ، مترفع عن الدنايا والصغائر ، يؤثر أن يتضور جوعا ويظل هكذا جائعا ، على مأكل يسقط كرامته أو يحط من ابائه ، أو يطأطىء هامته ، فهو لا يأكل الا ما لا يعجبه ، وكأن صليل السيوف وصهيل الخيول وصياح الأبطال قدرن فى أذنبه ، فعاد العملاق الأسمر الى الوغى مرة أخرى ليفخر ويثأر من الحاقدين عليه ، ويثبت أنه خير من كثيرين شرفوا بآبائهم وأمهاتهم ، فتلك الكتيبة العبسية تشهد أنه حين يتردد الفرسان ويحجمون عن اقتحام الميدان ، يندفع هو الى الوغى كالعاصفة الهوجاء ، فيكون حينئذ خيرا من الذين يتباهون بآبائهم وأخوالهم؛ وله فى المعارك الطعنة الفاصلة التى يخلع لها قلب العدو وتتفرق جموعه وتستحيل الى فلول مذعورة هاربة ، وهذه الحقيقة لا ينكرها الفرسان ولا تجهلها الخيول .

ثم شرع يتحدث - فى الفقرة الثالثة - عن صاحبته التى أقبلت عليه فى الصباح المبكر ، وتحذرة مغبة

الحروب وعواقب الغارات ؛ وكأنها تظن ظنا أن فى بعده عن ميادين الوغى بعدا لسهام المنايا عنه ، ولكنه على يقين من أن مثله ليس ببعيد عن يد الموت ، وأنها مخطئة فى ظنها ، فالموت مورد لابد أن يشرب من كأسه كل حى طال به أجله أم قصر .

ثم طلب اليها أن تقصر النصح وأن تلزم حد حيائها، لأنه على ثقة من أنه اذا لم يقتل فسوف يموت لا محالة .

وحينئذ تذكر أقوال معيريه ، فغلا الدم فى عروقه، وأراد أن ينتصر عليهم ويسحقهم ، فذهب يزعم لشدة بأسه وقوة شكيمته أن المنيـة لو خلقت على مثال لكانت على مثال صورته ، فهو المنية - كما وصف نفسه فى موطن آخر (١) حين يقتحم الصفوف ، والخطب مدلهم ، والخيل عابسة من هول الحرب ، والفرسان كالحة وجوههم كأنما يشربون من نقيع الحنظل ؛ وكأن عنترة هنا قد تضخم فى نفسه احساسه ببطولته وشجاعته .

وعنترة لا يقدم على الحرب الا بعد أناة وروية وفى حزم ، فهو كما يقول :

« كنت أقـدم اذا رأيت الاقـدام عزما ، وأحجم اذا رأيت الاحجام حزما ، وما دخلت موضعا الا قدرت لنفسى الخروج منه » (٢) .

فاذا ما اندفع الى الحرب واكتوى بلظاها ، لا يعود على نفسه باللوم ولا يلحاها .

---

(١) حين قال :

وانا المنيـة فى المواطن كلهـا
والطعن منى سابق الآجال - الديوان ص ١٩٥

(٢) انظر : الأغانى ٨/٢٩٩٠ .

الخصائص الفنية :

أودع الشاعر قصيدته هذه أفكار متنوعة ، وعواطف متعددة ، وعلى الرغم من ذلك فقد استحوذت على النفس ، وأثرت فيها تأثيرا بالغا ، ذلك أن الشاعر قد تخير لها معرضا كريما من معارض القول المصقول المهذب ، فالأفكار والعواطف لا تصل الى نياط القلب ولا تستوى على النفس اذا كان ثوبها الذى تعرض فيه باليا رثا مهلهلا أو سوقيا مبتذلا ٠

والذين يبحثون عن الحسن فى قول عنترة يجدونه متمثلا فى :

هذه اللبنات اللفظية التى شيد منها البناء الأدبى ، اذ تتمتع جميعها بالصفاء والجلاء والدقة والاحاطة بالمعنى ، والوقع الموسيقى الأخاذ ، فلست تجد فيها لفظة نابية ، أو قلقة فى مكانها ، أو لفظة غريبة تتعثر فيها أو وحشية تستكره وقعها ، أو تستثقل الأذن موسيقاها ٠

ابداع الشاعر فى مواءمته بين اللفظ والمعنى ، فقد اختار لتصوير الحنين والشجو والأسى ألفاظا تفيض رقة وتقطر عذوبة ، لتلائم هذه العاطفة الرقيقة ، والبيتان الأولان يؤكدان هذا المدلول ، ولما كان الفخر والحرب أتى بألفاظ جزلة قوية ، تسمع فى تضاعيفها صهيل الخيل وصيحات الأبطال وصليل السيوف وترى فى ثناياها شرر الأسنة والطعان ، ومقارعة الفرسان وميدان الوغى٠

قدرة عنترة على اصطفاء الألفاظ الموحية : تلك التى تحمل الى الفكر من الصور والظلال والايحاءات ما لا ينهض بأدائه غير الكلام المسهب ؛ ففى قوله : « ذرفت

دموعك فوق ظهر المحمل « الى جانب المعنى المستفاد منه ، ايحاء بأن عنترة كان دائما متقلدا سيفه ، وعلى أهبة الاستعداد للانقضاض على الأعداء المغيرين ، فى كل وقت وعلى أية حال ، فأشجانه وأحزانه لا تصرفانه عن بطولاته ، هـذا من جهة ، وبأنه كان شديد الوفاء لقومه حريصا عليهم من جهة أخرى . ولفظة « تلاحظت » فى البيت السابع . والتى تعنى فى الأصل : النظر بمؤخر العين . تحمل الى جانب هذا المعنى تصويرا دقيقا للحالة النفسية التى عليها هؤلاء المحاربون فى مثل هذا الوقت من الحرب ، اذ أن كل واحد فيهم تعتمل فى نفسه فكرة الفرار غير أنه يخشى البدء به خوف السبة والعار ـ لذا فهو يختلس النظرة تلو النظرة الى الذين معه فى ذعر وذهول وكأنى به يسأل رفيقه . هل بك مثل مابى ؟ وهل لك رغبة فى الفرار فنفر جميعا ؛ لكيلا أحصد العار وحدى ؟ .

ولفظة « بكرت » تحمل بالاضافة الى مدلولها اللغوى ، مشاعر هذه المرأة الدفاقة تجاه عنترة ، وتصوير أرقها وسهدها وفزعها عليه ، وحرصها الشديد على الابقاء على حياته .

والتضعيف فى « تخوفنى » يشعر بالحافها فى التخويف والحاحها عليه .

ونكتفى بما أشرنا اليه من ألفاظ الشاعر الموحية ، لضيق الوقت والمقام ، اعتمادا على ذوق القارىء وحسن تأتيه ، وسيره على الدرب ، فمن سار على الدرب وصل.

الصور البلاغية :

لم يشأ عنترة لمعانيه كلها أن تلبس من أثواب اللفظ

ما اصطلح عليه اللغويون ، وانمـــا أثر أن يطـوف فى الآفاق ، يستعير ما شـاء لما يشاء ، مستعينا بخيـــاله ، ليجعل معانيه أحب الى النفوس وأشد تأثيرا فيها ، لهذا رأيناه يوضح أفكاره بصور جزئية بيانية مثل التشبيه ، فقد شبه فى البيتين الأولين الدمع بالدر فى شكله وصفاء لونه ، وبحبات الفضة فى اشراقها وتلألئها ، وفى البيت العاشر : تشبيه بليغ يجعـل المشبه والمشبه به كأنهمـــا شىء واحد ، فى قوله « ان المنية منهل » ٠

والاستعارة : ففى البيت الأول استعارة مكنية فى قوله : « بكاء حمامة » حيث شبه الحمامة بانسان يتـألم ويبكى ، مضـــفيا على الحمامة من رهافة الحس ورقة الشعور ما للانسان الحزين ، ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشىء من لوازمه « البكاء » على سبيل الاستعارة المكنية٠

ومثلها فى البيت الثـــامن ؛ فقد أتى فيه باستعارة مكنية فائقة الحسن والروعة ٠ أضفت على المعنى جمالا لا يحد فى قوله : « الخيل تعلم » اذ جعل الخيل تـدرك وتوازن بين الأبطال فى المعارك وتعرف شجاعة عنترة ومكانته وفضله على سائر الفرسان المغاوير ٠

وفى البيت التاسع أتى باســـتعارة رائعة ، ترسـم صـــور دقيقة للمنايا ، وتبرز فى جـلاء هيمنتها على الانسان وتمكنها منه فى قوله : « غرض الحتوف حيث شبه الحتوف برماة يرمون بسهامهم غرضا أو هدفا ٠

وفى البيت الثالث عشر ضمنه استعارة لطيفة أيضا فى قوله « والخيل ساهمة الوجوه » ٠

والكنـاية : ففى البيت الســـاتع : كنى عن الشرف والنسب بقوله « معم مخول » ، وفيه تعريض منه بقيس ابن زهير كما أسلفنا ٠ وكنى عن عفة نفسه وابائهـــا ،

بالمبيت على الطوى والصـــبر على الجـــوع فى البيت السادس · والبيت الثالث عشر كناية عن ضراوة المعركة وشراستها واضطرام جذوتها · عـلاوة على أن الشاعر ـ فى الفقرة الأخيرة ـ قد لجـــأ الى أسلوب الحـــوار ، مصطنعا القصص اليسير وسيلة الى الكشف عن مغـزى الحوار ، وضمان الابقاء على السامع الممعن فى الاستماع، كما ضمن قصيدته أبياتا حكمية تتسم بالفطرة والسذاجة·

والقصيدة من بحر « الكامل » ووزنه « متفاعلن » ست مرات ، وموسيقى الأبيات ملائمة لأفكار القصيدة ، معبرة عن انفعالات الشـاعر ، فهى كما ترى ، ترق حينا وتعنف أحيانا ·

الجانب النفسى :

ان المجـــال المدقق يتلمس نفس عنترة الذائبة ألما وحزنا وحسرة تظلل هذا الشعر ، ولم لا ؟! فقد اجتمع على عنترة ذلان : ذل الأم وذل اللون ، وكان ذلك يؤذى نفسه الحرة الأبية ، التى تموج بالطموح وتفيض بالشمم، ويجعله يستعشر كثيرا من الحـــزن والأسى من جهة ؛ ويبالغ فى فتوته وفروسيته من جهة أخرى ، فى محاولة للتعويض عن النقص الذى يملأ عليه اقطار قلبه ، ويرن صداه فى أذنه من أصوات الناقمين عليه ، المعيرين له · كما يبدو للمتأمل أن أحزانا جسـاما أخرى قد اصطلحت على عنترة ، وبرزت فى شعره ، مصدرها : شقاؤه بحبه لعبـــلة ابنة عمه مالك ، والذى أبى أن يزوجهـــا منه لسواده أو لنسبه من أمه ، هذا الحب المحروم قد مسـح على حماسة عنترة بظلال من اللوعة والوجد والألم ، كما مسحت علىهذه الحماسة ظلال حزينة أخرى ، مصدرها شقاؤه بلونه وأصله من زبيبة ·

بيد أن هـــذا الحزن المخيم المقيم قد صـــفى نفسه وأرهفها ، ورقق حواشيها فبرز فى شعره هذا الجانب ، فنحن نرى ـ حتى فى حماسته ـ الحزن الذى يصـــفى النفس ويرهفها ، كما نجد الحب بجانب الحرب ؛ وأيضا نجد مثالية كريمة من الخلق الرفيع ٠ كما فى قوله :

ولقد أبيت على الطـوى وأظله
حتى أنال به كـريم المأكـــل —

وهذه الأخلاقية النبيلة جعلت رسول الله صـلى الله عليــه وسلم يقول ـ كما قيل ـ حين سـمع هذا البيت ؟ ما وصف لى أعرابى فأحببت أن أراه الا عنترة (١) ٠

ولعل هذا الذى ألم بعنترة من آلام وأحزان هو الذى رقق موسيقى شعره وصفاها كما رقق نفسه وأرهفهــا ؛ فتراك لا تلبث حين تقرأ فى شـعره أن تشاركه مشاركة انسانية ؛ وتنعطف نحوه انعطافا وجدانيا ؛ وتــراك فى حالة لا شعورية قد تمثلته ولبست ثيابه ، وعشت تجربته بكل أبعادها وأغوارها ٠

يدرك المتذوق ـ اذن ـ أن عنترة انما لهج بالحديث عن شجاعته وبسالته ومآثره ، ليشفى جراح نفسه المعناة من عقدة النقص ٠ لتتوقد الثقة بالنفس فى نفسه وليسرى عنها ٠ هذا من جهــة ٠ وليبدل صورة أصـــله الماثلة فى أذهان قومه بصورة كريمة يرضى عنها هو ٠ وليبدو أمام حبيبته عبلة على النحو الذى يجعله لائقا بها ٠ وجديرا بحبها ٠ فتحرس حبــه وتذود عن حياضه ٠ من جهـــة أخرى ٠ ولعل مما يشف عن ذلك أيضا قوله فى معلقته :

---

(١) ذلك الخبر للأصفهانى عن الجوهرى عن عمر بن شـبة عن ابن عائشة فى الأغانى ٢٩٨٩/٨ ٠

ولقد شـــفى نفسى وأبرأ ســقمها
قيل الفوارس ويك عنتر أقدم !! (١)

وكانى بك تشعر بالمرارة التى يتجرعها · واللوعة التى يخفيها فى ثوب شجاعته ·

وكانى بك تشعر ايضا أن حب عنترة العميق لعبـلة ورغبته فى الارتباط بها · جعلاه متهالكا عليها · عانيـا فيها · كلفا بها · ولعل نفس عنترة الحزينة بالشـعور بالنقص · قد وجدت فى الارتبـاط بابنة مالك العبسى وسيلة أخرى ـ الى جانب الشجاعة والفروسية ـ للتعويض عن هذا النقص الذى يحسه عنترة ، فقد كان يتهـافت عليها الصناديد والأثرياء وذوو الجاه والمكانة وبحظوته بها من دونهم · يكون قد فضلهم وتفوق عليهم · ومن ثم نراه اذا فخر لا يفخر على عبلة وانما يفخر لها · فعنترة يتحدث اليهـا عن حروبه التى يغامر فيهـا بروحه من أجلها · ويعرض عليها خلقه وشجاعته · وكانما يريد أن يقول لها : ان كان قد فاته كرم الأصل من قبل أمه ، فقد عوضه بخلال وسجايا وبسالة ما فوقها بسالة · والحق : أن عنترة شاعر نموذجى من شعراء الجاهلية المبرزين ، وفى شعره تصوير للحب والحـرب والخلق المثـالى ، والنفس الانسانية المعناة ، ولذلك طارت شـهرة عنترة وذاع شعره ·

كلمة منهجية :

تكشف الأبيات عن منهج القصيدة الذى دار فى فلكه شعراء الجاهلية وشاعرنا لم يشذ عنه ، فقد بدأ قصيدته

(١) الديوان ص ٣٤ ·

بالوقوف على الديار والحنين ، ثم انتقل الى غرضه المنشود فجأة ، ودون ما تمهيد .

تزيح النقاب عن بعض الملامح الجاهلية المتمثلة فى الصراع القبلى ، والحروب المستعرة لأتفه الأسباب ؛ ووثوب الأبطال لنصرة قبائلهم ، والشجاعة وصدق البلاء فى الحرب ، وتصور هلع المرأة على الرجل وخوفها عليه ، وضنها به على الردى .

توضح الأبيات لونا شعريا جاهليا - هو الفخر الفردى - أى فخر الشاعر بنفسه ، وقد كان هذا اللون وسيلة الشاعر الى الافصاح عن نفسه ، واذاعة مناقبه ومآثره ، ليثبت وجوده ومكانته بين قومه ، وقد كان للبيئة الاجتماعية التى قامت على التنافس ، والصراع بين القبائل ، وكثرة الحروب والغارات ، اليد الطولى فى شيوع مثل هذا اللون من الفخر .

من ثم نجد عنترة يفخر بأصله من شداد ، وبمواقفه البطولية ومغامراته الحربية ، ومعرفته بفنون الحرب ، وعفة نفسه وعزتها . وهى صفات كان الجاهليون يجلونها ويعتبرونها كمال الفروسية .

تفصح القصيدة عن مدلول الوحدة الشعرية عند الجاهليين ، وهى تقوم على وحدة البيت ، لا وحدة القصيدة ، اذ أن أفكارها ليست متسلسلة تسلسلا منطقيا ، وليست مرتبة بحيث تسلم كل فكرة الى أختها ، ويؤدى البيت الى أخيه فى ترابط وانسجام ، وانما نجد أن كل بيت يحمل فكرة ، فالأفكار خطرات يرسلها الشاعر ، لذا فلن تجد عسرا أو تحس قلقا ، أن تقدم فيها أو تؤخر أو أن تحذف ، فان هذا لن يؤثر فى تسلسلها .

توضح الأبيات نزعة الشاعر الوجدانية ، وعاطفته وانفعاله ، وتجلو أعماق نفسه وخفاياها ٠

وأخيرا تكشف عن أسلوب عنترة وخصائصه الفنية ، فالألفاظ جزلة موحية ، والمعانى واضحة ، والعبارة تجمع بين اللين والقوة ؛ والصور على قلتها مشرقة ، والخيال صاف فطرى منتزع من البيئة ، هذا الى جانب البعد عن تزويق اللفظ وزخرفة العبارة ، أى عن المحسنات ٠

وبعد : فهذه القصيدة من شعر عنترة العبسى قد أخذت بخط وافر من خصائص الشعر فى العصر الجاهلى، ومثلته خير تمثيل ٠

النابغة الذبياني

في احدى اعتذارياته

أضواء على الشاعر ومكانته :

النابغة : هو أبو أمامة زياد بن معاوية بن سعد بن ذبيان من قبيلة ذبيان احدى القبائل المضرية العريقة ، وقيل فيه الذبياني تمييزا له عن النابغة الجعدي والنابغة الشيباني . ولقب بالنابغة ، لأنه نبغ في الشعر بعد أن احتنك وطعن في السن ، اذ فاجأ الناس بشعر بذّ به الشعراء ، ولذلك قالوا : كان أوس بن حجر شاعر مضر في الجاهلية ، حتى ظهر النابغة وزهير فأخملاه .

والنابغة أحد سراة بني ذبيان ، وسيد من سادتهم ، غير أن تكسبه بالشعر غض من قدره ، وطأطأ من مكانته ، ولو لم يتكسب بشعره لرفعه شعره الى الرياسة على قومه ، ومهما قيل فيه فان النابغة لم يفقد أخلاق الشرف في مدائحه .

فقد كان يعيش منذ نعومة أظفاره في أرض نجد كما عاش امرؤ القيس فرعى تلك المسارح الغينانة وتنسم ذلك الشميم العطر ، ولكنه ما كان فتى خليعا مستهترا ، وانما كان مؤثر العادة الجد ، نازعا الى غايات الشرف .

وقد امتدت اليه بعد نبوغه الاعناق ، والتقت على أبوابه السبل ، واتصل بالنعمان بن المنذر في الحيرة ، فاستخلصه اليه ، وأسبغ عليه من نعمته ، وما زال النابغة يتبسط على النعيم ، ويتفيأ

ظلال الخفض ، فى رحاب النعمان ، حتى د رج بالنميمة بينهما بعض حساده ، هؤلاء الذين نفسوا عليه هذه المنزلة ، التى أضافها الى مجده التالد ، وشرفه الموروث ، وتذرعوا الى الوشاية بقصيدة النابغة فى وصف المتجردة — زوج النعمان — كما يقول بعض المؤرخين أو بهجائه للنعمان ، فقد جاء الوشاة النعمان بأبيات ملفقة مصطنعة ، فيها :

قبح الله ثم ثنى بلعن

وارث الصائغ الجبان الجهولا

" يعرض للنعمان بأبى أمه وكان صائغا فى الحيرة " — كما يقول بعض المؤرخين — على أن شعر النابغة يكشف عن هذه الدسائس فى أكثر من موضع ، فى مثل قوله : " لئن تك قد بلغت عنى خيانة ... البيت " وقوله : " ما قلت من سيء مما أتيت به ... البيت "

ومن المرجح أن حياة النابغة مع النعمان وشدة مداخلته له ، هى التى كادت له هذه المكيدة ، وهى التى اطلعت رؤس الحقد الكامن فى نفوس مناظريه على هذه الزلفى والمكانة عند الملك النعمان .

وقد وقرت السعاية فى نفس الملك فتوعده ، فنجا الشاعر بنفسه الى الشام ، ولاذ بعمرو بن الحارث الأصغر الغسانى ، فنزل منه فى جناب مريع وأمن شامل ، وقد نال عند الغساسنة حظوة ، ساعد عليها ما كان بينهم وبين آل المنذر من الخصومة والمحاسدة .

بيد أن ذلك زاد فى حقد النعمان عليه ، وما فتئ النابغة

عند الغساسنة يصل مسامعهم وقلوبهم بالسرور ، ويملؤون حقائبه بالذهب ، حتى علم بمرض النعمان ، فآب اليه ، مقدما بين يديه تلك القصائد الروائع فى الاعتذار ، فاستلت ما فى نفس الملك .

وقد أضاف النابغة بذلك الى فنون الشعر القديم فنا آخر يمتاز به ، هو فارس حلبته ، وصاحب عذرته ، ألا وهو : فن الاعتذار . ليكون أثره فى بناء الهيكل الأدبى ظاهرا ، وموضعه منه معروفا .

وقد عرف له شعراء العرب تلك المكانة المرموقة فى الشعر ، فقدموه فى عكاظ ، واحتكموا اليه فى خصوماتهم الأدبية .

والنابغة أحد فحول الشعراء الثلاثة الذين لا يشق لهم غبار ، وهم : امرؤ القيس وزهير والنابغة . ويمتاز عن صاحبيه ببديع كنايته ، ودقيق اشارته ، وصفاء ديباجته ، وقلة تكلفه ، وموافقة شعره لأحاسيس الناس وخواطرهم .

وكانت وفاته فى السنة الثامنة عشرة قبل الهجرة (٦٠٤م) .

الأفكار الأساسية التى تدور فى فلكها القصيدة :

١ ـ حزن النابغة وقلقه لغضب النعمان بن المنذر .

٢ ـ دور الوشاة والحاقدين فى الوقيعة .

٣ ـ رعاية الشاعر لود النعمان ووفاؤه لعهده .

٤ ـ موقف الشاعر من الغساسنة وسبب مدحه اياهم .

٥ ـ استعطاف النعمان وطلب العفو .

الأبيات المختارة من القصيدة

١ـ أتانى ـ أبيت اللعن ـ أنك لمتنى
وتلك التى أهتم منها وأنصب !!

٢ـ فبت كأن العائدات فرشن لى
هراسا به يعلى فراشى ويقشب

٣ـ حلفت فلم أترك لنفسك ريبة
وليس وراء الله للمرء مذهب

٤ـ لئن كنت قد بلغت عنى وشاية
لمبلغك الواشى أغش وأكذب

٥ـ ولكننى كنت امرءا لى جانب
من الأرض فيه مستراد ومذهب

٦ـ ملوك واخوان اذا ما أتيتهم
أحكم فى أموالهم وأقرب

٧ـ كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم
فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا

٨ـ فلا تتركنى بالوعيد كأننى
الى الناس مطلى به القار أجرب

٩ـ ألم تر أن الله أعطاك سورة
ترى كل ملك دونها يتذبذب

١٠ـ فانك شمس والملوك كواكب
اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

١١- ولست بمستبق أخا لا تلمه
على شعث أى الرجال المهذب ؟!

١٢- فان أك مظلوما فعبد ظلمته
وان تك ذا عتبى فمثلك يعتب

...

المفردات فى ضوء القاموس المعجمى :

١- أبيت اللعن : تحية عربية جاهلية ، وهى دعاء للمخاطب بأن يجنبه الله فعل ما يوجب اللعنة ، ويدعوا الى الذم . أهتم : أغتم وأحزن . أنصب : أتعب وأتألم .

٢- العائدات : الزائرات فى المرض ، والشاعر هنا يقصد الهموم التى تعاوده . الهراس : نبات له شوك كثير . يقشب : يخلط ويجدد .

٣- الريبة : الشك . مذهب : طريق .

٤- الوشاية : السعاية بحديث يراد به الافساد بين الناس والوقيعة .

٥- مستراد : مكان يتردد فيه الانسان بين الحين والحين طلبا للكسب .

٦- أحكم : أتصرف بمحض حريتى .

٧- اصطنعتهم : غمرتهم بكرمك وطوقتهم بمعروفك .

٨- الوعيد : الانذار والتهديد ، ويكون فى الشر والوعد فى الخير . القار : القطران .

٩- سورة : بالضم المنزلة والمكانة الرفيعة . وبالفتح

السطوة والمجد ، والغاية واحدة . يتذبذب : يضطرب ويتزلزل .

١١ ، ١٢ — شعث : تفرق وانتشار وخطأ . عتبى : رضا وصفح .

مناسبة القصيدة :

أوغر الوشاة صدر النعمان على النابغة ، بعد أن كان قد استخلصه لنفسه ، وأراد النعمان قتله ، ففر النابغة ناجيا بحياته ، ولاذ بالغسانيين فى الشام ، فأكرموا وفادته ، وأحسنوا مثواه ، وأطلقوا يده فى أموالهم ، فشكر لهم حسن معروفهم ، وجميل ما أسدوا اليه ، ومدحهم ، غير أن قلبه ما فتئ متصلا بالنعمان ، فكان يبعث اليه درره الروائع ، متنصلا مما ألصقه به الواشون ، معتذرا .

وبذلك انفرد النابغة بلون من الشعر ، لم يزاحمه فيه غيره من شعراء الجاهلية ، حتى عرف باعتذاريات النابغة ، ومنه هذه القصيدة .

المعنى الأدبى :

نبئت — جنيت ما يوجب اللعنة ويدعو الى الذم — أنك لائم علىّ غاضب ، وهذا الذى بلغنى فوق ما أحتمل ، فمنه تصطك مسامعى وترتعد فرائصى ، وتتألم نفسى .

فأرقت ليلى ، وجافانى فراشى ، وظللت أتململ تململ السقيم ، وكأنى أبيت على فراش من شوك .

وأقسم لك قسم صدق ، لا حنث فيه ولا ريبة معه ، انني لم أخدش لك ودا ، ولم أخش لك عهدا ، فاذا وصلتك عنى خيانة ، فالخائن من بلغك ، فهو كاذب غاش ، يحاول افساد ما بيننا من حب ، وتعكير ما بيننا من صفاء .

واذا كنت قد أخذت علىّ وفادتى على الغساسنة ومدحى اياهم ، فهون عليك ، لانك تعلم صلتى بالملوك ، وأننى أغشى بلاطهم ، وأنال خطوتهم ، وأننى رحالة ، أجوب الارض ،وأرتاد بقاعها ، كلما ألح بى الأسى ، وأحدقت بى الهموم .

ولا لوم على ولا تثريب ، فما كانت رحلتى الى الغساسنة الا بعد تمكن الوشاة من قلبك ، واضطغانك على ، فلما توجست منك خيفة ، وخشيت انتقامك ، وليت وجهى شطر الغسانيين ، فأكرموا وفادتى ، وأحسنوا مثواى ، وأحلونى محلا رفيعا ، وأطلقوا يدى فى أموالهم ، فحملنى جميل صنعهم ، وحسن معروفهم ، على شكرهم ومدحهم ، ولا عجب أو غرابة فى ذلك ، وانما العجب كل العجب فى أن أتفكر لهم ، وأقلب لهم ظهر المجن ، بعد أن مسحوا ما بى من ألم ، وأزالوا ما بى من عناء .

ان الامر لا يعدو الشكر على المعروف ، مثلما يشكرك قوم آثرتهم بمعروفك ، وأسبغت عليهم برك ، واصطفيتهم لنفسك .

وان وفائى لك ، وخوفى منك ، يبرزان فى نفسى غاية ، هى الظفر برضاك ، فلا تتركنى نهبا للهواجس والمخاوف ، ولا تدعنى

هكذا منبوذا بين الناس ، كما ينبذ البعير الأجرب ، الذى طلى جلده بالقطران خشية العدوى .

ولم لا ؟ وقد أحلك الله مكانة مرموقة ، وحباك مجدا وسؤددا وشرفا ورفعة ، تشرئب لها أعناق الملوك ، وتتطلع اليها نفوسهم ، دون جدوى ، فانك بينهم كالشمس بين الكواكب ، اذا تنفس صبحها تسللت الكواكب لواذا ، وتوارت .

وهب أنى أخطأت ، فانك تعلم أن الانسان الذى لا يخطئ لا وجود له ، وأن العتاب المرير يقصى الأخوة ، وينفر الأصدقاء ، فتقبل صديقك بما فيه من عيب ، والا فلن يدوم لك فى الوجود صديق واذا كنت مظلوما فلا تأرق أو تتألم ، فما أنا الا عبد لك ظلمته ، واذا رضيت وعفوت فتلك سجيتك ، ومثلك يعفو عند المقدرة .

• • •

استقراء النص الأدبي ودلالاته : - النفية والخلقية والاجتماعية -

١- يمثل هذا النص الأدبي فنا جديدا من فنون الشعر الجاهلي كان النابغة أباعذرته ، والمنفرد به ، هو : فن الاعتذار ، وينبعث عن عاطفة الخوف والرهبة ، مع الرغبة والأمل ، ومن ثم يقولون : أشعر الناس النابغة اذا رهب . ومبعثه عند النابغة لم يكن عن ضعة أو ذلة نفسية وانما كان بدافع الاخلاص للنعمان ، وحرص على حفاظ عهده ، وصدق حبه له ، ورعايته لما كان بينهما من ود ، والحاجة على دفع وشاية الواشين .

٢- يبرز النص فضيلة تمتع بها النابغة هي : الوفاء ، اذ كان الرجل يحيا بالفعل حياة خفض وترف في كنف الغساسنة ، الا أنه لم ينس ما كان بينه وبين أبي قابوس من ود وحب وصلة ، فظهرت المعاني في نفسه علاقة بدافع الوفاء .

٣- يكشف النص لنا عن ألوان من الحياة الاجتماعية وعادات بيئية ، لدى الجاهليين :

أ) فقد أبرز الصورة التي كان عليها العرب في تحية الملوك والعلية ، والدعاء لهما ، وهي تدل على ذكاء العرب وقوة ادراكهم .

ب) والصورة التي كانت تجري في قصور الملوك والعظماء من

دسائس ومؤامرات وحقد بين الحاشية والاتباع يدفعهم الى السعاية والافساد .

جـ) والعادة التى عرفت فى البيئة العربية وهى طلاء الجمل الاُجرب بالقطران ليبرأ من جربه ، واقصاؤه عن الابل السليمة ، خوفا من انتقال العدوى اليها .

د)هـ وألم بما فى البيئة العربية من الشوك والجمال ،والشمس التى تناغى ، والكواكب التى تسطع فى ليلها ، يهتدون بها ، مما يدل على معرفة العرب بعلم الفلك .

٤ـ الدفاع المنطقى القائم على الحجة والبرهان ، حينما دافع الشاعر عن صلته بالغساسنة ، فالواجب يقضى مدح من أحسن اليك ، فلا يكافىء الاحسان الا الاحسان ، وأخذ الحجة على النعمان بالنعمان نفسه ، ومن يتصلون به ، ويتقربون اليه ، وتبلورت المنطقية فى اعترافه الصريح : بأنه لا وجود لمن يسلم من الخطأ .

وهذا من شأنه : استلال لسخيمة النعمان وضغنه على الشاعر ، واستمالة قلبه واستدرار عطفه عليه ، وظفره منه بالصفح .

* * *

الصور البلاغية :

ارتكز الشاعر على توضيح أفكاره ومعانيه بصور بلاغية ، من أبرزها : التشبيه ، كما فى (نبت كأن العائدات) فشبه حاله فى أرقه وسهده ، وطول ليله بحالة من وضع الشوك فى فراشه ، و (كفعلك فى قوم ٠٠) فشبه موقفه من الغساسنة ومدحه لهم اعترافا بجميلهم ، وشكرا لمعروفهم معه ، بصنيع النعمان مع الذين يمدحونه ، ويتقربون اليه . و "كأنى الى الناس مطلى" فشبه نفسه بمنأى عن الناس ومعزل ، منبوذا بينهم لوعيد النعمان بالجمل الأجرب ، قد طلى بالقار ، وعزل عن باقى الجمال . "كأنك شمس والملوك كواكب" فقد شبهه بين أقرانه الملوك ، بالشمس بين الكواكب .

ويتضح فى هذه التشبيهات أثر البيئة ، فهو قد انتزع تشبيهاته من بيئته . الى جانب هذا التقسيم الرائع فى البيت الأخير .

استخدامه لأساليب الاستفهام :

كاتيانه بهذه الصورة التقريرية ، التى أخرج معناها مخرج الأمر المقرر الثابت ، والذى لا سبيل الى انكاره . فأمال به عطف النعمان الغاضب عليه . حيث خرج من بين نفييه الكامنين فى الاستفهام وحرف النفى لم بالاثبات ، لأن نفى النفى اثبات ، وذلك فى قوله (ألم تر) والنعمان لذلك لا يملك الا الاقرار والجواب

ببلى . وهو يفيد تقرير سمو مكانة النعمان وسطوته .

وكذلك الاستفهام (أى الرجال المهذب) الذى خرج عن معناه الى النفى والتذييل الرائع ، والحكمة الثاقبة فى قوله :

ولست بمستبق أخا لا تلمه * ... البيت

لولا أن النابغة أراق ماء نفسه وأهرق ذاته على أعتاب النعمان فى البيت الأخير .

سمات أفكاره ومعانيه :

أفكار النص مرتبة ترتيبا منطقيا بحيث تسلم كل فكرة الى أختها بل ان كل فكرة تبعث فكرة لتتضافر جميعها على النهوض بالغرض العام .

ومعانيه مترابطة محكمة النسج ، قوية الحبك ، بعيدة عن التكلف ، تبرز قدرة الشاعر على التأثير فى ممدوحه ليظفر بعفوه الذى ينشد ، وبصفحه الذى يأمل ، ثم ان احتفال النص بعمق التجربة الشعورية ، وصدق عاطفة مبدعه وأحاسيسه ، واشراقة أسلوبه ونقائه ، وجلجلة جرسه الموسيقى ، المعزوف على أوتار بحر " الطويل " ، كان له أثره البالغ فى توفره على " الصدق الفنى " مما أوجد هذا التجاوب الوجدانى بين المتلقى والمبدع الوذعى ..

بل وبين هذا المبدع النابغة وغيره من المبدعين ، كبشار ابن برد ، الذى راقته حكمة الذبيانى ، فقال متأثرا بها :

اذا كنت فى كــل الأمور معاتبا
صديقك لهم تلق الذى لا تعاتبه
فعش واحدا أو صل أخاك فانه
مقارف ذنب مــــرة ومجانبــــه
اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى
ظمئت ، وأى الناس تصفو مشاربه ؟!
ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها ؟
كفى المرء نبلا أن تعد معايبــه

***

طرفة بن العبد بن سفيان البكري

من بكر بن وائل ، أمه وردة بنت عبد العزى ، كان قومه ينزلون بالبحرين ، أخوه الشقيق : معبد ، وأخته لأمه : الخرنق بنت بدر ابن مالك — كانت شاعرة — وخاله : المتلمس الشاعر .

يتم طرفة من أبيه باكرا — وهو صغير — فكفله أعمامه ، وأبوا أن يقسموا له نصيبه من ارث أبيه ، وظلموه حقه ، وأهملوا تربيته وأساءوا أدبه ، فشب ميالا الى الدعة والبطالة ، عاكفا على اللهو والخمر والمجانة ، مولعا بالشعر وقرضه ، والوقوع في أعراض الناس يقال : ان طرفة كان يرعى ابلا له ولأخيه ، وكان كثيرا ما يلهو عنها بنظم الشعر ، فقال له أخوه : لم لا تستريح بابلك — ترجع بها في الليل الى معاطفها — ؟ ترى أنها ان أخذت منك تردها بشعرك هذا ؟!

وقد دعا طرفة نزق الشباب الى هجاء ملك الحيرة عمرو بن هند على الرغم من افتقاره الى نواله :

فليت لنا مكان الملك عمرو

رغوثا حوله فبتنا تخور

لعمرك ان قابوس بن هند

ليخلط ملكه نوك كثير

فأضمر له ابن هند السوء . حتى اذا جاءه مع خاله المتلمس يستجديان فضله ، — وكان المتلمس قد هجاه أيضا — هش للقائهما ،

يريد أن يؤمنهما ، وأمر لكل منهما بصلة ، وأحالهما بكتابين على "المكعبر" عامله على البحرين ليستوفيا ها منه ، فلما كانا في طريقهما الى العامل ، داخل المتلمس من الصحيفة وسواس وهم ، فالتمس من يقرأها له ، فاذا فيها : "من عمرو بن هند الى المكعبر اذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه ثم ادفنه حيا" فألقى الصحيفة في النهر وهو يقول :

يضيت لها بالماء لما رأيتها

يجول بها التيار في كل جدول

وبها أي بصحيفة المتلمس يضرب المثل لما يتشاءم به من الكتب .
ثم قال لطرفة : معك والله مثلها ، فقال : كلا ما كان ليكتب لي مثل ذلك .

وأخذ وجهه حتى أتى العامل بالبحرين ، فأودعه السجن أولا ، وفيه يقول طرفة يذكر اخوانه الذين تخلوا عنه :

أسلمني قومي ولم يغضبوا

لسوءة حلت بهم فادحه

كم من خليل كنت خاللته

لا ترك الله له واضحه

كلهم أروغ من ثعلب

ما أشبه الليلة بالبارحة

...

ثم قتله ، وعمره ست وعشرون سنة على الأرجح . بدليل قول

أخته الخرنق في رثائه :

عددنا له ستا وعشرين حجة
فلما توفاها استوى سيدا فخما

فجعنا به لما رجونا ايابه
على خير حال لا وليدا ولا قحما

في عام ٥٦٥م أو في ٥٦٠م • على الظنة ، وقيل انه مات قبل الاسلام بسبعين سنة • اجتهادات فالمراجع لم تشر الى السنة التى ولد فيها أو التى قتل فيها • فمرة تقول : الغلام القتيل • وأخرى : ابن العشرين •

• • •

شعره :

كان طرفة منذ حداثة سنه متوقد الذهن ، حاضر البديهة ، سمع يوما وهو صغير يلعب مع الصبيان • المسيب بن علس ينشد شعرا له في صفة الجمل :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره
بناج عليه الصيعرية مكدم

والصيعرية صفة للاناث من الابل خاصة ، فقال له طرفة «استنوق الجمل» فذهبت مثلا للتخليط ، أو للقوى يصير الى الضعف والذلة •

ونبغ طرفة في الشعر ، وعد من فحوله ، وهو دون العشرين

العشرين ، ولكنه كعمرو بن كلثوم لم يشتهر الا بمعلقته ، ولعله كان مكثرا وجهل الرواة أكثر شعره ، ولذلك قال علماء الشعر : طرفة أشعر الناس واحدة . وتلى معلقته فى الشهرة رائيته الى أولها :

أصحوت اليوم أم شاقتك هر * ...

ومن ثم قال ابن قتيبة : وهو أجود هم طويلة - لأنّ معلقته أطول المعلقات - وله بعد ها شعر حسن . وجودة شعره ترفعه الى مصاف الفحول .

فشعر طرفة يمتاز بصدق الوصف ، والبعد عن الغلو والتوشية بحلل الطرافة والجدة ، والافصاح عن مذهب صاحبه، الداعى الى اقتناص اللذة . واستعمال الغريب من اللفظ والكناية ، حتى ليخفى المعنى أحيانا على المنقب عنه . فشعره لذلك بدوى خالص . برع فى الوصف والحماسة والفخر والهجاء ، وحكمه مستمدة من حياته ويدور معظمها حول فلسفة الحياة والموت .

وطرفة كما يقول لا ينتحل شعر غيره :

ولا أغير على الأشعار أسرقها
غنيت عنها . وشر الناس من سرقا

وان أحسن بيت أنت قائله
بيت يقال اذا أنشدته : صدقا

لقد بلغ طرفة من جودة الشعر بحداثة سنه ما بلغه شعراء آخرون بكثرة شعرهم وطول أعمارهم .

فلسفته فى حياته :

يرى طرفة أن الحياة فرصة سانحة ، يجدر بالانسان أن يقتنص لذائذها ، وأن لا يقعد عن لهوها ، وألا يحول بين نفسه وبين نعيم الحياة ، دونما تستر أو ارعواء ، كما هو الحال عند الخيام :

واغنم من الحاضر لذاته
فليس فى طبع الليالى الأمان

فغاية طرفة من الدنيا انما هى الخمر والمرأة والنجدة ، ولولا هذه اللذات الثلاث ما رغب فى الحياة ولا رهب الموت :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى
لعمرك لم أحفل متى قام عودى

وطرفة يدعو الى هذا جهارا فى قوله :

فان تبغنى فى حلقة القوم تلقنى
وان تلتمسنى فى الحوانيت تصطد

وما زال تشرابى الخمور ولذتى
وبيعى وانفاقى طريفى ومتلدى

ألا أيها الزاجرى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى ؟

فان كنت لا تستطيع دفع منيتى
فدعنى أبادها بما ملكت يدى

...

فهو لا يقعد عن الحانة والماخورة ، أو عن اللذات حين تتاح له أوقاتها ، وطرفة يحاول تبرير مسلكه المعوج ، ويلبس للدفاع عن حياته مسوح الحكماء ، وليس من الحكمة فى شىء أن نبرر الانحراف وأن نرضى باعتناق اللذة ، واصطناعها مذهبا فى الحياة . ان مذهب طرفة قديما أشبه ما يكون بمذهب الوجوديين والماديين ، ممن يسعون الى اشباع رغبات النفس والكفر بكل القيم ، فى حياتنا حديثا فحياتهم بهيمية بحتة .

ولو سار الناس وفق مذهب طرفة وغيره لضاعت القيم ،واندثرت الأخلاق ، واندحرت كل معنويات الحياة .

اهتم بدراسة طرفة المستشرقون من أمثال "كوسان دى برسفال" "وبيرون" و "وليم بن الورد البروسى الألمانى "و "مكس سلغسون".

ولعل اهتمام المستشرقين بطرفة يرجع الى مذهبه وفلسفته الداعية الى اللهو واللذة ، والى ما فى شعره من طرافة وجدة وصدق فى التعبير والتصوير .

بيد أن حياة طرفة اللاهية الماجنة جعلت قومه ينبذونه وينفرون منه ويعتزلونه ، وتدرك حزن طرفة وأساه لاعتزال قومه اياه فى قوله :

الى أن تحامتنى العشيرة كلها
وأفردت افراد البعير المعبد

...

جو القصيدة :

ضاق طرفة بقومه لوقفهم منه ومن حياته اللاهية العابثة الماجنة فاقتاد راحلته ينتقل بها بين الأحياء ، ويجوب آفاق الأرض ، واجتاز اليمامة الى اليمن ، ثم ركب البحر الى الحبشة ، ثم أعاده الى وطنه حنينه اليه ، فعاد يفكر من جديد فى الرحلة الى الحيرة .

وهكذا كانت حياته . وقد أكسبه هذا التجوال الوقوف على مشاهد وثقافات لم يكن ليحصل عليها لو أنه قنع بالارتباط بمرابع قومه ومضارب خيامهم .

ومن تلك الحياة كتب معلقته الذائعة ، التى يكون قد نظمها ليبسط شكواه من أهله ويعلن آراءه فى الحياة .

وقد جعل طرفة موضوعها نفسه . فأفاض فى شرح حاله ونظره الى الحياة .

وبدأها بذكر الديار والتشبيب بخولة ثم وصف ناقته فى خمسة وثلاثين بيتا من عيون الشعر ومبتكره . ثم خلص من ذلك الى الفخر بنفسه فأمعن فى وصف انهماكه ولهوه وانفاقه ، وشرح مذهبه وفلسفته فى الموت الذى يسوى بين الكريم المنفق والبخيل الشحيح . ثم انتقل الى عتاب ابن عمه " مالك " ليختمها بأبيات حكمية .

...

الأبيات المختارة للدراسة والتحليل من معلقة طرفة :

١ ـ اذا القوم قالوا : من فتى ؟ خلت أننى
عنيت فلم أكسل ولم أتبلـــــد

٢ ـ ولست بحلال التلاع مخافـــة
ولكن متى يسترفد القـوم أرفد

٣ ـ فان تبغنى فى حلقة القوم تلقـنى
وان تلتمسنى فى الحوانيت تصطد

٤ ـ وان يلتق الحى الجميع تلاقـــنى
الى ذروة البيت الشريف المصمد

• • •

٥ ـ وما زال تشرابى الخمور ولذتــى
وبيعى وانفاقى طريفى ومتلـــدى

٦ ـ الى أن تحامتنى العشـيرة كلها
وأفردت افراد البعـــير المعبد

• • •

٧ ـ ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغـى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى ؟

٨ ـ فان كنت لا تسطيع دفـع منيـتى
فدعنى أبادرها بما ملكت يــــدى

٩ - أرى قبر نحام بخيل بماله
كقبر غوى فى البطالة مفسد

١٠- ترى جثوتين من تراب عليهما
صفائح صم من صفيح منضد

١١- أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى
عقيلة مال الفاحش المتشدد

١٢- أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة
وما تنقص الأيام والدهر ينفد

١٣- لعمرك ان الموت ما أخطأ الفتى
لكا لطول المرخى وثنياه باليد

١٤- متى ما يشأ يوما يقده لحتفه
ومن يمسك فى حبل المنية ينقد

١٥- أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى
بعيدا غدا ، ما أقرب اليوم من غد

...

المعنى اللغوى :

١ - من فتى : أى من فتى يغنى فى الشدائد • عنيت • قصدت • أتبلد : أتحير أو أتردد •

٢ - حلال : ساكن • التلاع : جمع تلعة وهى مجارى الماء من رؤوس الجبال الى الأودية • رفد : عطاء • استرفد : طلب الرفد •• يعنى : لا أهرب من اكرام الضيوف •

٣ ـ تبغني : تطلبني • حلقة القوم : ناديهم واجتماعهم للمشورة •
الحوانيت : جمع حانوت مكان بيع الخمر •

٤ ـ ان يلتق : للمفاخرة بالأنساب والاعراق • ذروة الشيء أعلاه •
المصمد : الذى يقصد فى الحوائج •

٥ ـ تشرابى : الشرب الكثير • طريفى • جديد • ومتلدى : قديم
أى المال الذى اكتسبه والمال الذى ورثه •

٦ ـ تحامتنى : اجتنبتنى ونفرت منى • المعبد : المطلى بالقطران
لانه أجرب ، المبعد عن الابل حتى لا يعديها •

٧ ـ الزاجرى : اللائمى • على حضورى القتال والحرب والتمتـــع
بالملذات ، هل تضمن لى البقاء والخلود فى الحياة اذا أنـــا
لم أفعل ذلك ؟

٨ ـ أبادرها : أسبقها وأعالجها •

٩ ـ النحام : البخيل الذى يتنحنح حينما يسأله أحد معروفا •
غوى : ضال •

١٠ـ جثوتين : الجثوة : الكومة • صفائح جمع صفيحة وهو حجـــر
عريض • منضد : مرفوع مرصوص بعضه فوق بعض •

١١ـ يعتام : يقصد ويختار • عقيلة : هنا تعنى خيرة المال •
الفاحش المتشدد : السيء الخلق البخيل •

١٢ـ لعمرك : اللام للقسم • قسمى أو يمينى • أخطأ : ما مصدرية
ظرفية • الطول : الحبل ترسل به الدابة الى المرعى • ثنياه :
طرفا الحبل •

١٤ـ يشبه الانسان فى يد الموت بالحيوان المربوط بحبل . وهو مرسل يرعى ، فمتى شاء الموت جذب الانسان اليه .

١٥ـ أعداد . جمع عد وهو الماء الدائم الذى لا يغيض .

• • •

المعانى الأدبية للأبيات :

فى هذا القسم من قصيدة طرفة جمال ، قل أن يشبهه جمال

فأول ما يلقانا من هذا القسم حديث الشاعر عن نفسه ، فى ايجاز واجمال ، كأنه يريد أن يعرف نفسه الينا ، أو يقدمها الينا ـ كما يقول المحدثون ـ فكأننا نلقاه لأول مرة ، وكأننا نحب أن نعرف من أمره ما نجهل ، وكأنه يصور لنا نفسه تصويرا يسيرا ، قبل أن يأخذ معنا فى الحديث المفصل ، فى قوله :

(اذا القوم قالوا : من فتى ؟ الى قوله : وان يلتق الحى الجميع تلاقنى)

فانظر الى طرفة وهو يتقدم اليك ظريفا لبقا رشيقا ، خفيف الروح ، واثقا بنفسه أشد الثقة ، راضيا عنها كل الرضا ، شاعرا بواجبه الاجتماعى أوضح الشعور وأقواه ، يؤمن بأنه قد خلق لقومه ، قبل أن يخلق لنفسه ، فهو يجيبهم اذا دعوا ، كأنهم لا ينبغى لهم أن يدعوا غيره ..

ولم لا ؟ وهو الفتى الذى يختصر شباب قومه اختصارا ، ويحتمل عنهم اثقال القبيلة كلها ، وهو يستجيب لدعوة الداعى عند

الملمات ، سواء أوجهت اليه أم الى غيره ، مسرعا لا كسلا ولا متبلدا ، وكيف يكسل وهو الفتى الذى ملأ نفسه اعجابا بنفسه ، وملأ نفوس قومه اعجابا به ؟! فأول صفاته اذن : هذا الشباب الذى يدفعه الى أن يتمثل الواجب الوطنى أقوى التمثل ، وهو بعد لا يكتفى بالمخاطرة والمغامرة فى سبيل هذا الواجب ، ولكنه كريم أيام السلم لا يستتر ولا يتوارى ولا يهرب بماله ، من السائلين واللائذين ، ولا يضن بقوته على المستغيثين والمستجيرين ، ولذلك فهو ينزل الأماكن الظاهرة ، فيعطى اذا سئل ، ويجيب اذا دعى . فاذا ما اطمأن الى أنه يؤدى ما عليه لقومه والناس أحسن الأداء ، فانه لا يحرم نفسه من ملذات الحياة ، ولا يحول بينها وبين نعيمها . دون تستر أو ارعواء فهو يدلك على الأماكن التى يمكنك أن تجده فيها ، وهو من أشرف البيوتات وأكرمها ، بل هو منها فى أرفع مكانة وأرقاها .

واذا كنت قد عرفت الشاعر ، فاحذر أن تكون كقومه عاجزا عن فهمه ، مقصرا فى ادراك فلسفته ، — وفلسفته ذائعة فى كثير من البيئات البادية التى لم ينفذ اليها الدين ، أو الحاضرة التى لم يؤثر فيها الدين — على أن قومه لم يفهموه فأنكروه ونبذوه .

وهو مع ذلك حريص على أن يعرض فلسفته ، ويجادلك فيها ويقنعك بها اقناعا ، فى قوله :

ألا أيهذا الزاجرى .... الخ

فخطأ من يلومونه على الاقدام واضح ، لانهم لن يستطيعوا أن يضمنوا الخلود ، فالموت ساع اليه ، اذا هو لم يسع الى الموت ، والذين

يلومونه على شهود اللذات ، والأخذ فى لهو الحياة مخطئون ، لأنهم لا يستطيعون أن يضمنوا له حياة خالدة ، اذا هو أعرض عن اللذات ، والحياة بلا نعيم ولا لذة هى حياة خشنة جافة طويلة ، وهل يحرص الناس على الحياة الا لما فيها من لذة ؟

واذا لم يكن بد من الموت ، واذا لم يكن وراء الموت شىء ، واذا كان الموت ملما بالفقير والغنى ، والجواد والبخيل ، والشجاع والجبان ، فعلى الانسان أن يأخذ حظه من لذات النفس والجسم ؟! ثم أى فتنة فى هذا التشبيه البدوى الصادق الصارم ، الذى يجعلك ترى نفسك فى البادية مع الشاعر تسمع له وتفهم عنه ، وتهم أن تسير سيرته ، لولا أن لك دينا ينبئك بأن للحياة غاية أخرى غير اللذة ، وبأن الموت ليس هو الأمد الذى ينتهى اليه الأحياء .

...

الدراسة التحليلية :

البناء الفنى للقصيدة :

سارت القصيدة وفق نظام القصيدة الجاهلية ، فقد بدأها الشاعر بالغزل ، قائلا :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد
تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

وانتقل الى وصف ناقته ، فوصفها وصفا رائعا ، وضع به لبنة فى

الهيكل الأدبى ، اذ يقول :

وانى لامضى الهم عند احتضاره
بعوجاء مرقال تروح وتغتدى

ثم ينتقل الى موضوعها الرئيسى ، وهو الافتخار بنفسه ، والافصاح عن مذهبه وفلسفته ، ويتخطى ذلك الى عتابه على ابن عمه ، الذى يقول فيه :

فما لى أرانى وابن عمى مالكا
متى أدن منه ينأ عنى ويبعد

ويختم معلقته الذائعة بالحكم الرائعة ، من مثل قوله :

ستبدى لك الايام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالاخبار من لم تزود

وقد صب الشاعر قصيدته فى قالب أوزان " بحر الطويل " والذى يمثل الابهة من جانب ، والسعة من جانب آخر ، واختار "الدال المكسورة" لتكون حرف الروى فيها •

وفى القصيدة أبعاد اجتماعية ونفسية وتربوية ••

الافكار :

تكمن الافكار الاساسية فى أبيات الدراسة فى :

١ ـ الفخر والاعتداد بالنفس •
٢ ـ جانب اللهو والمجانة فى حياة الشاعر •
٣ ـ تبرير الشاعر لسلوكه اللاهى •

٤ - نظرات فى الحياة والمجتمع .

ويمكن أن ترى هذه الأفكار الأربع من خلال فكرتين فقط هما : الاعتداد بالنفس ... وتقرير الشاعر لمذهبه وفلسفته فـــى الحياة .

وتتسم أفكار الشاعر بالجرأة ، وقوة المعارضة والاقناع ، ورسم شخصية الشاعر بوضوح وعناية حتى لتكاد أن تلمسها أو تتقراها فى تضاعيف هذا الرسم - والوضوح والعمق ، والبعد عن السطحيـــة والابتذال ، فهى فى جملتها معان قوية ، تدل على ثقافة الشاعر ، وكثرة تجاريبه ، نتيجة أسفاره ، على صغر سنه ، كما يمتاز طرفـــة بقوة انفعاله بفكرته ، والحاحه عليها ، وقدرته على التعبير عنهـــا ، فى توهج عاطفى ، وابداع فنى متألق فى رسم التجربة الشعورية فى صورة شعرية رائعة .

...

الأساليب والصور البيانيـــة :

استعان الشاعر على توضيح أفكاره بألوان بيانية .. ففـــى البيت الأول تنقل بين الأسلوبين : الخبرى والانشائى ، ويوحـــى استفهامه بشدة احساس الشاعر بنفسه ، حتى كأنه يتخيل أنه وحده الفتى .. ويبدأ البيت الثانى بنفى مؤكد ، لينفى بشدة أن يكـــون ممن يستترون عن طلاب الحاجات .. وفى قوله : " تصطد " استعارة

رائعة ، تصور الشاعر الطليق فى صورة الطائر ، الذى ينتقل من فنن الى فنن أو من مكان الى مكان ، فى خفة ورشاقة .. وانتزع من البادية تشبيها فى البيت السادس .. وقصد بالاستفهام فى قولـه : " هل أنت مخلدى ؟ " الى التعجيز والافحام ، ويبرر فلسفته ومسلكه فى البيتين : التاسع والعاشر بدليل انتزعه من صورة قبرين متجاورين تشابها فى المظهر والمنظر ، فى الوقت الذى اختلف فيه من ثوى فى كل منهما مسلكا واتجاها .. وكلمة " نحام " توحى بالبخل الشديد .

وشبه الحياة بكنز يتناقص . فى البيت الثانى عشر .. ثم يشبه فى البيتين الثالث عشر والرابع عشر صورة الحياة وانتزاع الموت اياها ، مهما طالت ، بصورة الحبل يرخيه صاحب الدابة لها ، وطرفاه فى يده ، يجذبها متى شاء ، وقد انتزع هذا التشبيه من البيئة .

ويجدر التنويه بما فى عبارات طرفة فى هذا النص من سهولة ووضوح وأناة ، لا تظفر بها دوما فى شعره ، غير أن ذلك قد يكون راجعا الى حرصه على توضيح فكرته وفلسفته هذه التى ندرك مدى مجانفتها للصواب ، والتى لم يستطع طرفة نفسه أن يتجاهل فداحة جنايتها عليه ..

صلة القصيدة بالبيئة :

تبرز القصيدة بعض الصور فى الحياة العربية فى العصر الجاهلى ، من : اجتماع علية القوم للتشاور فيما يهمهم ، أو يحزبهم

والظهور لطلاب الحاجات ، وبذل العون لهم ، وبعض مظاهر حياتهم اللاهية ، وألوان المتعة فيها .

وتكشف بعض تشبيهات الشاعر عن عادة بيئية هي : أنهم كانوا يطلون الجمل الأجرب بالقطران ، ويعزلونه عن بقية الجمال ، خوف العدوى .. وكيفية رعى الدواب ..

وبعد ..

فلقد أعجب النقاد بطرفة ، وأحلوه محلا رفيعا فى دولة الشعر فجعلوه فى مرتبة الفحول ، بل ان لبيد بن ربيعة قدمه على نفسه ، وجعله بعد امرىء القيس ، حين سئل عن أشعر الشعراء ، فقال : الملك الضليل (يعنى امرأ القيس) والغلام القتيل (يعنى طرفة) والشيخ أبو عقيل (يعنى نفسه) .

***

القسم الثاني

قلائد من النثر الأدبي

هاشم بن عبد منـــاف
فى الاصلاح بين الخصوم

شعاع على الخطيب :

علم بين أعلام الخطابة فى الجاهلية ، وسيد مبرز بين سادات الجزيرة العربية ، صاحب المواقف المحمودة والمكانة المرموقة ، فكـم أنقذ قريشا من مجاعات ، وكم أصلح بين المتناحرين وذوى العداوات وقد كان اسمه عمرو بن عبد مناف ، ثم غلب عليه لقبه " هاشم " لأنـه أول من هشم الثريد لقومه[1] ورجال مكة مسنتون عجاف ، وفى ذلـك يقول عبد الله بن الزبعرى :

عمرو العـلا هشم الثريد لقومـه

ورجال مكة مسنتون عجـــاف

وكانت لهاشم سقاية الحجاج وإطعامهم ، وكان أحد الأجواد الذين ضرب بهم المثل فى الكرم والسخاء ، وكان أول من سن رحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن والشام ..

وهاشم هو : والد عبد المطلب جد المصطفى صلى الله عليه وسلم . وقد وفد على الشام فى تجارة له ، وفى الطريق ألمّ بـه المرض ، فتحول إلى غزة ، حيث أدركته منيته فيها ..

---

(١) الهشم : كسر الشىء اليابس ، واهتشم ما فى ضرع الناقة : اذا احتلبه ، والهشيم من النبات : اليابس المتكسر ..

مناسبة الخطبة :

عرف العرب الجاهليون الخطابة ، وكان من أهم بواعثها : تأصل ملكة البيان وخلابة اللسان عند العرب ، والانتماء الجماعى ، وكثرة الخصومات والمنازعات ، والتفاخر بالآثار الأدبية . وكان قد نشب خلاف عنيف بين قبيلتى قريش وخزاعة ، على الرغم من التقائهما فى النسب والأرومة ، فأصلهما واحد ، وأدرك عقلاء القبيلتين خطر استمرار هذا الخلاف ، فالتجأوا إلى هاشم بن عبد مناف ، ليصلح بين الفريقين ، لما له من سيادة ومنزلة رفيعة فى نفوس الجميع ، فلبى هاشم نداء الإصلاح ، وخطب فيهما ليعيد إليهما الوئام والألفة ..

وتنهض الخطبة على أفكار هى :

١- التقاء القبيلتين فى النسب والأصل .

٢- التهيئة النفسية لقبول الصلح .

٣- عرض النصيحة والدعوة الى الصلح .

٤- ثمار النصيحة المخلصة والتجاوب معها .

نص الخطبة :

" أيها الناس : نحن آل ابراهيم ، وذرية اسماعيل ، وبنو النضر ابن كنانة ، وبنو قصى بن كلاب ، وأرباب مكة (1) .
وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب والنسب ومعدن المجد (2)

---

(١) أصحاب الشأن والمكانة فيها .

(٢) الذروة : أعلى الشىء . الحسب : الشرف .

ولكل فى حلف يجب عليه نصرته ، واجابة دعوته ، الا ما دعا الى عقوق عشيرة وقطع رحم (١) .

يا بنى قصى : أنتم كغصنى شجرة أيهما كسر أوحش (٢) صاحبه والسيف لا يصان الا بغمده ، ورامى العشيرة يصيبه سهمه ، ومن أغضبه اللجاج ، أخرجه الى البغى (٣) .

أيها الناس : الحلم شرف ، والصبر ظفر ، والمعروف كنز ، والجود سؤدد ، والجهل سفه ، والأيام دول ، والدهر عبر ، والمرء منسوب الى فعله ، ومأخوذ بعمله ، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد ودعوا الفضول (٤) تجانبكم السفهاء ، وأكرموا الجليس يعمر ناديكم ، وحابوا الخليط (٥) يرغب فى جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم (٦) وعليكم مكارم الأخلاق فانها رفعة ، واياكم والأخلاق الدنيئة فانها تضيع الشرف ، وتهدم المجد ، وان نهنهة (٧) الجاهل أهون من جريرته (٨) ورأس العشيرة (٩) يحمل أثقالها ، ومقام الحليم عظة لمن انتفع به ..

---

(١) عقوق عشيرة : عدم البر بها والخروج عليها .
(٢) أوحش صاحبه : شعر له بالوحشة والانفراد .
(٣) اللجاج :المبالغة فى الخصومة . والبغى : الظلم .
(٤) ما لافائدة فيه .
(٥) المخالط والمعاشر .
(٦) كونوا منصفين عادلين ولو على أنفسكم ، لتكونوا موضع الثقة .
(٧) زجره وابعاده . (٨) ذنبه وجريمته . (٩) سيد الجماعة .

فقالوا : رضينا بك أبا فضلة — وكانت كنيته — وتصالحا ..

الخطبة فى معرض المعنى :

مالى أراكما تتناحران ، وأصلكما واحد ؟! ويجمع بينكما الوطن المشترك ، وهو موضع الاجلال والاكبار من الناس ، ولكليكما قمة الحسب والنسب والمجد المؤثل ، وكيف لا وأنتما تنتسبان الى ابراهيم عليه السلام ؟ ومن ثم وجب عليكما مناصرة كل حلف يدعو الى الخير ، وينبذ كل ما يدعو الى صدع العشيرة ، أو جلب الشر اليها

ولا غرو ! فقريش وخزاعة كغصنى شجرة ، اذا كسر أحد الغصنين آلم الآخر ، والذى يرمى بسهمه ليصيب عشيرته مقتول به لأن سهمه سوف يرتد الى صدره ، والذى يبالغ فى الخصومة ويسرف فيها يظلم نفسه ، ويبغى على أهله .

ثم أهاب الخطيب بجمهوره أن يتحلى بصفات الحلم والصبر والمعروف والكرم ، لأنها تكسب أصحابها الشرف والفوز وحسن الأحدوثة والسيادة ، وأن ينأى عن الجهل ، لأنه يؤدى الى التهلكة .

ووضح أن الكيس من لا يأمن غدر الأيام ، واتعظ بعبر الزمن ، وأن كل انسان مسئول عن فعله ، محاسب عن عمله ، فلتفعلوا الخير لتنالوا الحمد ، ولتبتعدوا عن الشر ليبتعد عنكم من لا خلاق لهم ، ولتحترموا جلساءكم ليحب الناس مجالستكم ، ولتعدلوا ولو على أنفسكم ليطمئن القوم لكم ، ويثقوا فيكم ، ولتجعلوا مكارم

غايتكم ، لتعلو منزلتكم ، ويعظم شأنكم ، ولتحذروا الأخلاق الدنيئة ، لأنها تهدم الشرف ، وتقوض المجد ..

واعلموا أن زجر الجاهل أهون من جريمته ، وأن سيد القبيلة يحمل تبعاتها ، وأن مقام الحليم عظة لمن كان له قلب يتعظ ، وفكر يتدبر ..

الخطبة فى دائرة الدراسة التحليلية :

موضوعها :

فى العصر الجاهلى كانت المنازعات كثيرا ما تنشب بين القبائل ، وربما كان يحدث ذلك لأسباب قد تبدو لنا اليوم دون مستوى النزاع ، غير أن هذه المنازعات كانت غالبا ما تنذر بالخطر ، وتهدد بالحرب الضروس .. وصدق القائل :

الشيء يبدؤه فى الأصل أصغره

ومعظم النار من مستصغر الشرر

ولهذا كان الحكماء يهرعون الى الاصلاح بين المتخاصمين ، قبل أن يستعر أوار الشر بينهما .. وكان المصلحون يخطبون ، موضحين وجوب الصلح ، ونبذ الخلاف ، تجنبا لما يجلبه من شرور ، على غرار هذه الخطبة ، التى أراد بها سيد قريش التأليف بين قلوب القريشيين والخزاعيين ، والقضاء على الفرقة التى دبت بينهما ، واعادة الوحدة الى جموعهما .

طرق الخطيب لتحقيق هدفـــه :

لما كان حرص الخطيب على تحقيق هدفه — وهو الاصلاح — واضحا ، فقد سلك اليه طرقا كثيرة ، يأتى فى مقدمتها :

النداء العام "أيها الناس" ليضمن اصغاءهم ، وليحملهم على السمع والطاعة والتذكير بالمفاخر التى تعتز بها القبيلتان .

وتحريك الدوافع القومية فيهما ، فكلتاهما يلتقيان فى النسب والأصل والموطن ، مما يسرع بالمتخاصمين الى اصلاح ذات البين .

وسرد الحكم التى تحمل النصح والارشاد لكل من يريد لنفسه منزلة ، ولأمته رفعة .

ثم الافصاح عما يحدث لكلا الفريقين اذا لم يستجيبا لندائه ، وينصاعا لدعائه .

وقد وصل الخطيب بهذه الطرق الى غايته السامية وهدفــه النبيل ..

أسلوب الخطبـــــة :

تراوح الأسلوب بين الخبر والانشاء ، فمن الأساليب الخبرية "نحن آل ابراهيم ، وذرية اسماعيل ، ومغادء الفخر ، و "الحلــم شرف ، والصبر ظفر الخ" وتفيد النصح والارشاد ، ومــــن الاساليب الانشائية : النداء فى "أيها الناس .. يا بنى قصى" ويفيد بعث الألفة ، والحمل على التجاوب ، والأمر فى "اصطنعـوا المعروف ، أكرموا الجليس ، حابوا الخليط ، أنصفوا من أنفسكـم" ويفيد النصح والتوجيه ..

وقد اتسمت الخطبة — الى جانب ما تقدم — بسمات لفظية وأسلوبية ، من أبرزها : وضوح العبارة ، وروعة افصاح الكلمات عن المعانى ، وفصاحة الألفاظ وأصالتها ، وقصر الجمل ، وتألق الحجة واقناعها ، والحاق النتائج بالمقدمات ، وايراد الامثال ..

الصور البيانية فى الخطبة :

اتجه الخطيب الى بعض الألوان البيانية ، لتوضح فكرته ، كالتشبيه فى "أنتم كغصنى شجرة ، المعروف كنز" والاستعارة المكنية فى "لنا ذروة الحسب" فقد شبه الحسب بجبل عال ، ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشىء من لوازمه ، وهو الذروة ، وفى "اصطنعوا المعروف" و "تكسبوا الحمد" و "تهدم المجد" و "تضيع الشرف" ففى هذه كلها استعارات مكنية ، ترفع من قدر الكلام ، وتقوى المعنى وتحليه .

وبعد :

فلقد استطاعت الخطبة فى الجاهلية أن تؤدى دورها الرائد فى وقت لم يكن المقال قد ظهر بعد ،ولم تكن هناك صحف سيارة ، فكانت الخطابة لسان حال القبائل العربية .. وكان لخطبائهم المرموقين من أمثال : كعب بن لؤى ، وقيس بن خارجة ، وقس بن ساعدة ، وأكثر بن صيفى ، وهانىء الشيبانى كان لهؤلاء وغيرهم شأنهم الذى لا يجحد ،ومقامهم الذى لا ينكر ..

ولو كان العرب يكتبون لظفرنا من آثار بلاغتهم فى المساجلة الخطابية بالشىء الكثير الرائع ..

ذو الاصبع العدوانى

يوصى ابنـــه

حرثان بن الحارث ، من بنى الظرب بن عمرو من بنى يشكـر ابن عدوان .

كان لقبه ذو الاصبع ، قيل : لأنّ حية نهشت ابهام قدمـه فقطعها ، وقيل : بل كانت له اصبع زائدة فى رجله .

وذو الاصبع أحد حكماء العرب المجربين ، وقادتهم المحنكين وهو فارس معدود ، تشهد بفروسيته الميادين ، فقد كانت لـــه وقائع مشهورة .

وعمر طويلا وأسن جدا ، وتوفى نحو عام ٢٥ ق هـ ٥٩٥م

وهو من شعراء الجاهلية المبرزين ، يغلب عليه الشعـــر الوجدانى ، كما فى قوله فى ابن عمه الذى كان يؤلب عليه الأعداء ، فقال يلومه ويقرعه :

لاه ابن عمك ، لا أفضلت فى حسب
عنى ولا أنت ديانى فتخزونـى

ولا تقوت عيالى يــوم مسغبــة
ولا بنفسك فــى العزاء تكفينى

فان ترد عرض الدنيـــا بمنقصتى
فان ذلك مما ليس يشجيـــنى

ماذا على وان كنــتم ذوى رحمـى
ألا أحبكم ان لـــم تحبونـى

يا عمرو الا تدع شتمي ومنقصتي
أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

عني اليك فما أمي براعية
ترعى المخاض ولا رأيي بمغبون

كل امرئ صائر يوما لشيمته
وان تخلق أخلاقا الى حين

...

ولذي الاصبع وصايا من أبرزها وصيته الى ابنه أسيد

والوصايا جمع وصية وهي ما تأتي من حكيم لقومه ، أو من سيد لعشيرته ، أو من أب لابنه أو أم لابنتها ، ويغلب أن يكون ذلك عند الاحساس بالأجل ، أو العزم على الرحلة . أو الاشراف على ثنية الوداع .

والوصية موضع الدراسة صادرة من أب الى ابنه عندما أحس بدنو أجله ، واقتراب رحيله عن الحياة ، وقد أودع وصيته خلاصة تجاربه وخبرته في حياته ، أملا في أن ينتفع بها ، ويفيد منها في معاملة الناس .

<u>أفكارها</u> :

تدور حول : كبر سنه وزهده في الحياة . التنبيه الى أهمية وصيته والرغبة في الحفاظ عليها . الصفات الحميدة والخلال الكريمة التي ينبغي أن يتصف بها ابنه لينال المنزلة عند قومه .

نص الوصيــــة :

قال ذو الاصبع :

" يا بنى : ان أباك قد فنى وهو حى [١] ، وعاش حتى سئم العيش [٢] ، وانى موصيك بما ان حفظته بلغت فى قومك ما بلغتــه ، فاحفظ عنى : ألن جانبك لقومك [٣] يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك [٤] يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشئ يسودوك [٥] وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ، ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك [٦] ، واحم حريمك [٧] وأعزز جارك [٨] ، وأعن من استعان بك [٩] ، وأكرم ضيفك ، وأسرع النهضة فى الصريخ [١٠] ، فان لك أجلا لا يعدوك [١١] ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئا ، فبذلك سؤددك [١٢] " .

---

(١) عمر طويلا ولم يعد له مأرب فى الحياة ..

(٢) سئم العيش : كره الحياة .

(٣) ترفق بهم فى المعاملة ..

(٤) قابلهم بالبشر والتهلل وطلاقة الوجه ..

(٥) لا تخص نفسك بشئ دونهم يجعلوك سيدا عليهم ..

(٦) كن كريما به سخيا ..

(٧) حافظ على حرمتك ، وكل ما يجب عليك حمايته ..

(٨) انصره .. (٩) عاون من طلب منك العون ..

(١٠) أسرع الى نجدة من يستغيث بك .. (١١) لا يتخطاك أو يتعداك

(١٢) أى : احفظ وجهك ، والسؤدد : الشرف والسيادة ..

الوصية فى ضوء الدرس التحليلى :

* اقتضت حكمة ذى الاصبع ألا يفاجىء ولده بالوصية ، ولذا هيأ نفسه تهيئة رائعة ، لتجد الوصية صداها فى نفسه ، وأثرها الطيب فى حياته ، وليس ذلك بعجب فهو أب ، والأبُ دائما ما يبذل كل ما يملك من نصح واخلاص لابنه ، انطلاقا من حرصه على أن يكون ابنه رجلا عظيما . وتبدو هذه التهيئة فى هذه المقدمة . التى أعلن فيها احساسه بدنو أجله — وهذا أدعى لصدق النصيحة — وقدم لها بـ " يا بنى " فهى توحـــى بأقصى ما يتصور من صور العطف والرحمة والحنان ، فهـــو عطف الوالد على ولده الصغير الضعيف كما نفهم من تصغـــير (بنى) وهذا مما يزيد فى تقبل ابنه للوصية وتأثره بها . وأسلوب المقدمة خبرى .

* ثم انتقل الى تقديم وصيته ، التى تصل مستقبل ولده بماضـــى والده فى أسلوب انشائى .
* صب عصارة تجاربه وخبراته فى وعاء عقل ابنه ، ليحقق من المجد والرفعة ما حقق أبوه .
* أدرك بعقله الثاقب ما يجب أن تكون عليه الاسرة ، بــــل العشيرة من الصلة الوثيقة ، والحب والاحترام المتبادل .
* رسم لابنه الطريق السديد الى السيادة وسمو المكانة ، مـــن لين وتواضع وطلاقة وجه وسماحة نفس ، ورعاية للجار ، واكـــرام

للضيف ، واغاثة للملهوف . وهذه هي جماع الصفات الأصلية التي تتطلبها الحياة العربية في الصحراء .

* من خبرة ذي الاصبع بالنفوس قرن كل وصية بالنتيجة المترتبة عليها ، فلين الجانب يملأ القلوب بالمحبة ، والتواضع يرفع قدر صاحبه ، وهكذا .
* العاطفة في الوصية حارة جياشة ، لم تخب طوال الوصية ، ولم لا فهي وصية أب لابنه .
* دارت أساليبها بين الأسلوب الخبري — في المقدمة — والانشائي ، كالأمر في ألن جانبك ، ابسط وجهك .. والنهي في " ولا تستأثر عليهم . وما ذلك الا ليؤكد النصح والارشاد .
* استعمان ببعض الكنايات الرائعة كما في قوله : ألن جانبك فهو كناية عن الرحمة ، وابسط لهم وجهك كناية عن الرضا .
* الوصية كلام يصدر عن حكيم مجرب ، يسوق فيه الموصي شيئا من خبرته وتجاربه الى من يحب ، لينتفع بهذا القول وغالبا ما تكون عند الشعور بدنو الأجل ، أو الاشراف على ثنية الوداع .
* والوصية كالخطبة ، الا أن دائرة الخطبة أوسع ، ولها مناسباتها التي تختلف عن مناسبة الوصية .
* سمات الوصية : تتسم بقصر جملها ، وتتابع أفكارها ، ووضوح

معانيها ، وقوة عباراتها ، وحسن وقعها فى النفوس . وهذه السمات راجعة الى الرغبة فى علوقها بالصدر ، وذيوعها على الألسنة فى وقت لا تدوين فيه ولا تسجيل .

* تدل الوصية الجاهلية على ما وصل اليه العرب من خبرة وتجربة ودراية وحكمة ، على الرغم من ثقافتهم المحدودة ، وفلسفتهم التى لا تكاد أن تذكر ..

***